غوی

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو مكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها تسجيل المعلومات واسترجاعها من دون أذن خطي من الناشر.

غوى

(الفؤاد يضع حدًّا للألم)
مذكرات شاب مع ثنائي القطب

عمر الرديني

تَشْكِيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution

الطبعة الأولى
٢٠١٧

عهد / تنبيه

لا تخبر أحدهم بما يحدث في الداخل، الإنسان هناك يصارع للحياة وليس لإخبارهم!

ما حدث، بل وما يحدث...هو جزء من الماضي ليس إلا..وكل ما عليك أن تقرأ الألم الذي يغمد أجسادنا في الماضي كترياق لتخفيف وطأته عندما يداهمنا.

إهداء

إلى ذلك الرجل الذي آمن بي أكثر من إيمانه بنفسه، إلى تلك الحنون التي صلَّت لله كشمس وقمر..أبي وأمي.

إلى أختي الكبرى نادرة..التي كانت تطلب مني أن أردد في هوسي «وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ» لا أن أصرخ.

إلى من قتلهم الثنائي..

إلى أخي الأكبر رضا، الذي كنت متشبثًا به دوما منذ الصغر.

إلى أخويّ الصغيرين: حسان وعمار اللذين تعلما مني معنى الصمود والحياة.

إلى صغير منزلنا المدلل: «البراء» الذي كان يجلب لي الماء وأنا طريح الوسادة.

تمهيد

أنا رجل ثنائي القطب، يقتات على مشتقات الليثيوم منذ خمس سنوات، كنت أحاول أن أجعل هذا الكتاب سيرة ذاتية تشرح ما مررت به بأجزائه الدقيقة وتفاصيله الصغيرة، إلا أنه من الصعب أن تحكي للآخرين تلك التجربة التي تمر بها مع الظلام وغياب العقل.

فعندما ساد الظلام في عقلي، خرجت لهم وأنا أدعي بأني نبيهم الحق..منذرٌ لهم أن العالم سيدمر إن لم يتبعوني، والكثير من الحماقات التي ارتكبت؛ فعندما يغيب العقل يبرز الصنم وتتيه الرؤية...كيف لي أن أكتب هنا ما حدث لي في تلك العتمة..وكيف لي أن أعترف لمن ما يزال يرى أن المرض النفسي وصمة عار! لكنك ستجد على كل حال بعضًا مما مررت به مع ثنائي القطب دون أن أشعر بالمزيد من الخجل حيال ما قمت به أو صنعت.

كانت تجربتي الأولى مع الهوس بريئة للغاية، أما هو...فكانت تجربته معي في غاية الخبث، كنت أجلس في زاوية غرفتي والقيء من حولي يرسم حدودا جغرافية بيني وبين العالم، رائحة المكان كانت نتنة..كنت كمشلول لا يقوى على الحركة..يستسلم فحسب!

أما تجربتي الثانية؛ فكانت تكسوها الجرأة، ربما يكون لعامل الخبرة دور ما في الحكاية، كنت أسير ظهيرةً في الشارع كسكّير ممتلئ بالثقة، يسير نحو المجهول دون خوف، دون التفاتة واحدة للخلف، يشير بيديه إلى السماء دوما...وكأنه في انتظار وعد ما!

من جرب الهوس يعلم أن العقل يتصلب في لحظة معينة يعجز فيها عن فهم أبجديات الحياة.

أنا رجل ثنائي القطب، قررت أن أنقل لكم تجربتي مع المرض لعلها تكون سراجا منيرا لأولئك القابعين في الظلام دون أن نعرف بأمرهم.. أولئك الذين يخشون مواجهة الحياة دون أن تنقصهم الشجاعة..وماذا لو لم أستطع؟ لا أبالي...سأكتفي بجلبكم أنتم يا من لم تجربوا الظلام...هنا في غياهب هوسي..

هنا محاولة خجولة لممارسة النور؛ لأني أؤمن بأنه من الواجب علينا في الحياة أن نسير وفي أيدينا مصابيح حرة ننير بها دروب الآخرين المقيدة، هل أخبركم عن أحلامي؟ أحلم أن أصل لأبعد نقطة في الظلام؛ لأنيرها قبل وصولكم إليها.

**

إن الجنون يغري؛ لأنه معرفة.

ميشيل فوكو

**

(ليست الطفولة إلا المرآة البشرية للبراءة)

لا تشفق على المجانين، اشفق على نفسك..أنت لا تعي روعة أن لا يبالي المرء بشيء!

- آلان كيكي

في بداية خروجنا للحياة نكون غير مدركين لما يحدث حولنا من أشياء، ولا مستوعبين لما نلمس منها..ببساطة لأن كل الأشياء غريبة علينا، وهذا أمر طبيعي للغاية؛ فهناك الذاكرة لم تنضج بعد، ولم ترتوِ بعد بماء الحياة، ربما لأننا نخرج وعقولنا عبارة عن ورقة بيضاء تدون الأحداث فيها نفسها بنفسها، وفي كثير من الأوقات يكون التدوين عنيفًا بعض الشيء بحكم الظرف الواقع، إلا أننا نفهم في النهاية أن لاشيء عفوي، ولا مكان للصدفة..حتى ولو كنا نحن في بداياتنا عفويين وذوي تجارب بسيطة، قد تكون من شدة بساطتها عبارة عن ضحكة أو لمسة أو طعم يغري الذائقة، نحن في البداية لسنا سوى نسخا كربونية للا وعي الذي قرر تشكيل نفسه ليصبح واقعا قائما بذاته، ودون أن نقرر فعلا أننا نريد ذلك!

الأشخاص الذين يتكلمون من حولنا، القصص التي تحكى بيننا.. الملاحظات الصغيرة التي نقتنصها، ولا نفهم أسبابها..والأحداث التي تحيك نفسها أمامنا على مهل، بل حتى المشاكل والكوارث التي تحصل ولا يمكن لعقولنا الصغيرة تفسيرها بواقعية.

كل هذه الأشياء اكتشفنا أنها لم تكن كما كنا نراها حينها، ببساطة لأن الطفولة ترى الأشياء الصغيرة أكبر بكثير مما هي عليه في أرض الواقع؛ لأن عينيها البريئتين لم تريا من قبل تلك في صورتها الحقيقية.

ولم تخزن في ذاكرة بصرها قاعدة معلومات تمكننا من المقارنة والحكم بواقعية..

تلك الأشياء الصغيرة تبدو مخادعة؛ مخادعة لأنها لم تخبرنا يوما أننا نحن من يكبر أمامها، لا هي!

وفي حديثي عن الطفولة كيف يمكنني أن أنسى تلك العواطف النبيلة التي مرت بنا..تلك التي كنا فيها كماء أنزل للتو من السماء، لم يدنس بعد...

وحتى الأفكار، المفاهيم والقيم، تلك المعارف التي تعطي لعقولنا الأفكار التي ندرك من خلالها العالم المحيط بنا ونستطيع من خلالها أن نعطي قيمة لما يحدث حولنا من انفعالات وسلوكيات..

الضحكات البريئة، البكاء الصاخب، والجري بلا أدنى مسؤولية... كل تلك الأشياء لا يمكن لنا أن نتذكرها لأنها ببساطة تجارب أولى نسخت في أدمغتنا مستبقة خزينة الكلمات، الكلمات التي تعطينا طريقتنا التي نعبر بها عن كل ما يدور في وجداننا من حقيقة أو خيال، أو حتى من عوارض الأوهام التي مرت بنا في حياتنا.

وحتى لو امتلكنا قيمة الكلمات منذ النفس الأول..هل كنا فعلا قادرين على إسقاطها بطريقة صحيحة على الواقع؟ بالتأكيد لا..لا؛ لأننا كنا مشغولين بقضايا أهم بكثير مما هو متواجد في واقعنا في الكبر.

وعندما زرت الحياة في مولدي كان الجميع يشير إلى هذا الطفل الجميل بكل ما تحمله الكلمة من معنى بالنسبة لهم، حتى أنهم أعطوني ابتسامة غريبة خاصة بي، ذات شعور مقدس ..ابتسامة كلما رأيتها شعرت أني أزور الحياة من جديد.

كان العام عام ١٩٩٢ عام مليءٌ بالصخب والخوف، أمور سياسية كثيرة ووقائع اجتماعية، وأحداث عالمية تحصل وتتشكل..إلا أن حرب البوسنة والهرسك كانت الحدث المسيطر على الألسن والصادم لقلوب الجميع، أكثر من حرب الخليج وسقوط الاتحاد السوفيتي، إضافةً إلى ذلك؛ فإن الحرب البوسنية كانت ولادتي التي عدتها عائلتي حدثاً كونياً.. انتقالنا إلى منزل جديد هو أجمل الأنباء في هذه السنة الكئيبة، حملت بي أمي بعد نهاية حرب الخليج، وكان الجميع في تلك الفترة يعاني من الخوف والترقب، أما في عائلتي خصوصا فإن الأحداث تسير وفق قانون الطوارئ، حالة من الترقب المبالغ فيه لهذا المولود، ربما يكون هذا الترقب منطقيا لعدم وجود أحداث أخرى داخل المجتمع المدني الهادئ.

ولدت في مستشفى الولادة التي تبعد عن الحرم المدني بمسافة بسيطة، تلك المستشفى كانت تلقب بمستشفى الأموات؛ لأن مبناها

قريب من البقيع تماما، وغير ذلك كان المرضى يموتون فيها بشكل سريع وبدون أسباب معروفة! يقول الناس: إن السبب في ذلك يعود إلى فشل الكادر الطبي فيها.

في يوم ما في سن السادسة أصبت بارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة، وكدت أن أكون أحد الموتى في تلك المستشفى..طلب الطبيب بأن أخلع ملابسي أمام الملأ في الغرفة، وأن أتحمم..بعدها أعطاني إبرة مسكنة، لم يحتمل جسدي الصغير مفعولها القوي، حتى أصبحت أغني في الساحات والممرات بصوت عال وحالة طربية غريبة..ربما كانت تلك الحادثة إشارة صغيرة على أنني سأمارس تلك الفعلة مجدداً في كبري.. من يدري؟! الكثير من الأقاويل والقصص عن الموتى تنبع من تلك المشفى، حتى أن أحدهم حدثني مرة بأنه دخل ذات يوم غرفة الموتى؛ فوجد داخلها شخصًا حيًّا! ربما هي قصة من وحي خياله، بل هذا هو المؤكد، ولكن مثل هذه القصص كانت تأتينا باستمرار..كانت ولادتي طبيعية ولله الحمد، إلا أنني منذ لحظاتي الأولى كدت أن أخرج من الحياة فوراً إثر عارض ارتفاع درجة الحرارة المفاجئ؛ مما جعل الأطباء يقلقون حيال ولادتي وموتي في الوقت نفسه، وأنا وارتفاع درجة الحرارة أصدقاء لا نكاد نفترق..فمن حين إلى آخر تنخفض أو ترتفع دون سابق إنذار! قد تكون هذه الصداقة إشارة أخرى من بوادر الثنائي مجددا في جسدي.. لم يكن من المتوقع أن أصاب بمثل هذا المرض حتى في أكثر التوقعات سوءا! حتى أنا...كنت إذا رأيت المرضى في التلفاز يخيل إلي أنه شيء لن

يمسني مهما بلغ بي العمر! وما أقصده بالمرضى أولئك الذين نشاهدهم في المسلسلات القديمة، في الطفولة..يخبرنا الكثير ممن حولنا عن بعض الوقائع التي حدثت لنا، لم ندركها ولا يمكن لنا أن نصدقها؛ لأنها تكون في رحم الذاكرة..وكأنها خيال، بالرغم من كون كل الدلائل تشير على أننا فعليا كنا جزءًا منها، وما يجعلنا نصدق الدهشة التي تعترينا عندما نسمع تلك الحكاوي ممن سبقونا في الحياة؛ فمثلا تخبرني أمي كثيرا عن طفولتي وأكاد أجزم بأنه لست أنا من فعل تلك الأفعال وأنني لست جزءًا من تلك الحكايا، حتى ولو كانت الصور تؤكد ذلك، إلا أن عقلي يرفضها!

الطفولة مرحلة جميلة إلا أنني لا أتذكر منها إلا القليل، مثل صديق أخي الذي كنا نذهب إليه في نهاية الأسبوع لتناول البيتزا أو ابن خالتي الذي كان يتصل بنا دوما ويطلب منا المجيء إليهم لتناول البيتزا أيضا، تلك الوجبة عالقة في مخيلتي بشكلها ورائحتها التي تخيم على أرجاء المنزل..يقال بأن الأطفال ينسون كل شيء عن طفولتهم، ويقال أيضا إن الأطفال لا ينسون أي شيء من طفولتهم..ما اقوله أنا أن البيتزا لا تنسى!

قبل ولادتي كانت عائلتي تسكن حارة عتيقة في منطقة تسمى الهاشمية، من أحياء المدينة القديمة التي اختفت الآن، ولا أثر لها..تلك المنطقة كان لديها الكثير من المميزات، أهمها: الجيران، وانعدام شعور الغربة..عكس منزلنا الجديد الذي ولدت في نفس يوم انتقال عائلتي له،

انتقلنا إلى مخطط جديد يبعد عن الحرم ما يقارب ثلاثة كيلو مترات، كان الحي يوحي بأنه جديد إلا أنه مهلهل في تركيبته...كان يفقد أهم عناصر الحياة ألا وهم البشر! خلف البيت كثيرٌ من البيوت القديمة

ومقبرة قديمة يقال أنها تعود لأحد سلاطين الدولة العثمانية، وآخرون يصرون أنها تخص أحد الصحابة، وهي مهجورة لا يدفن فيها أحد.

تلك المقبرة كانت خرابة ليس إلا، إلا أن كثيرًا من الأقاويل تدور حول حارسها الرجل الطاعن في السن، ذي اللحية الكثيفة..وذلك الحيوان الممسوخ الذي يقطنها ويقتات على القطط..الكلاب الضالة حولها كانت كثيرة، وعلاقتنا معها نحن الأطفال علاقة شد وجذب؛ فهي تزعجنا وتخيفنا في المساء..وتسلينا وتشغل فراغنا حين نجري خلفها في النهار، هذا في صغري...أما حين كبرت؛ فقد فهمت أنه لا شيء حقيقي حيال تلك المقبرة، إلا أن الكبار كانوا يخيفوننا لئلا نخرج من المنازل! حتى أننا نحن الصغار شعرنا بالإثارة، وقررنا ذات يوم أن نخرج لنستكشفها ونتأكد من وجود الأموات المستعدين للحاق بنا في حال اقتربنا منهم ! كانت تجربة الاستكشاف جميلة ومرعبة؛ فالأطفال تتحفز نفوسهم لما هو غريب ومخيف، ولا أعرف حتى الآن سر الشجاعة التي امتلكناها آنذاك لنقترب منها..كنت أزعم في طفولتي أني رجل شجاع، وكنت أردد دوما هذه الجملة بثقة وبصوت لا يهدأ..حتى أني

أجمع كومة من الوسائد وأمتطيها، ثم أتخيل نفسي شخصية عريقة تردد بحنكة وحكمة: أنا رجل شجاع!

منزلنا الجديد كان في الحقيقة خاليًا من الأشياء تماما، إلا أننا أنا وأختي الكبرى وأخي الكبير كنا بمثابة كل شيء بالنسبة لوالدتي،، فقد ملأنا عليها المنزل كما تخبرنا بالكثير من الفرحة، تقول لنا أمي: إننا كنا كل شيء..

وحين نسألها عن نقص الكثيرمن الماديات؛ تبتسم وتخبرنا بثقة: إن الماديات عند توفر الأطفال لا قيمة لها!

عندما خرجت من المستشفى لم تكن هناك غرف مكتملة في المنزل، بعضها شبه جديد، وبعضها في حالة لم يكتمل بناؤها..إلا أني أذكر أنني امتلكت في ذلك المنزل غرفة خاصة بي أمكث فيها كل مساء..المفاجأة أنها غرفة من غرف المنزل التي لم يكتمل بناؤها، بل إنها لم تكن غرفتي تماما! كانت تلك الغرفة أكثر من يعرفني في الهوس، تكلمت مع جدرانها كثيرا..وكلمتني جدرانها في لحظاتي المعدمة، والجدران تفهم البشر أكثر من غيرها؛ و لهذا يحب المرض دائما أن يتوسدها!

لا أثاث في المنزل، ولا حتى مفروشات..كل ما كان هناك مجموعة من الصغار، وأمهم، والكثير من أصوات الكلاب الضالة المتسكعة حول المقبرة.

كان منزلنا قطعة صغيرة من الفردوس، وبالطبع لن تجد في الفردوس أجهزة كهربائية، ولا ألعاب ترفيهية، إلا أن المنزل الصغير حوى بعض ألعاب الفيديو، وبعض أشرطة المسرحيات القديمة، والكثير من الكتب.. ولأن الفردوس مليءٌ بالحكماء..كنا نعيش مع جدي وجدتي لأبي، جدتي كانت تحبنا بطريقة يخجل معها الحب من نفسه! كانت تفضلنا على باقي أحفادها لحبها الخاص لأبي، كان أبي يدللها وكأنها ابنته الصغرى.. أعمامي كانوا أيضا بارين بوالدتهم المسنة، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا مثل هذا الرجل الذي دللها كابنته! من بين إخوتي كان لي نصيب الأسد من حب هذه الجدة، ولهذا الحب قصة مضحكة وغبية بالنسبة لي، لكنها رائعة وخاصة في نظرها هي..روت لي أمي هذه القصة الغريبة فيما بعد.. أخبرتني أني رميت كوب الشاي على رأس جدي بغضب؛ ظنا مني أنه كان ينهر أمي..إلا أن جدتي استخلصت من هذا الموقف أني رجل يحترم النساء، وقررت حينها أن الرجل الذي يحترم النساء يستحق حبهن، وكان دليلها في هذا الاستنتاج أن الرجل الحقيقي لا يقبل قبلات النساء في صغره؛ لأنني كنت أرفضها تماما آنذاك، وهذا بالضبط ما كنت أؤمن به تحديدا بفضل تعاليم الجد الشديد والقاسي الذي رميته بكوب الشاي.

هذا عن جدتي لأبي، أما عن جدتي لأمي؛ فكانت قصة أخرى.. كانت تحبنا لدرجة لا تعقل من قبل أن نأتي ونراها أو تشاهدنا..لأنها توفيت قبل أن تنعم برؤيتنا، وقد بلغ بها الحب أن جعلت كل رصيدها من ثنائي القطب وراثة خاصة لي دون بقية أحفادها وأبنائها، ومن مثل هند؟! ومن يفعل كما فعلت؟!

وعن جدتي هند، كانت أمي تخبرني بالكثير من القصص التي حدثت لها أثناء مرضها..كانت القصص غريبة وشبه خيالية، لكن لم يدر بخلدي يوما بأني أحمل نفس الخيال ونفس الغربة التي عانت منها هند إلا في ذلك اليوم الذي لا أتذكر إلا لونه الرمادي، ورائحته الخاصة التي لا يشبهها شيء! حين كنت طريح الفراش في إحدى المستشفيات وأنا مقيد، حين سمعتهم يقولون: نفس مرض جدته...نفس مرض جدته! المرض الذي لم يجرؤ أحدهم على ذكره باسمه خوفا من..ياه يا لقساوته!

***

شيء من الذاكرة

في طفولتنا كانت أمي تجلب لنا الكثير من الكتب المصورة وأشرطة الفيديو التعليمية، كانت بمثابة بوابة لي ولإخوتي تشرفُ على العالم؛ فقد كانت تربي في نفوسنا تلك شعورَ الفخر..حيث إن الأطفال ما إن يتعرفوا على الكتب؛ حتى تتعمق مداركهم، كنت أتخيل الكثير من الأشياء المخجلة والسخيفة التي ما إن أتذكرها، أضحك دوما..فقد كنت أتخيلني قائدًا يصدر القرارات هنا وهناك، فيما يخص الأطفال الذين يعانون في طفولتهم بسبب المدرسة، كانت تلك الكتب تجعلنا ذوي شخصياتٍ محببة بين أقاربنا؛ فالجميع يتمنى بأن يصبح أبناؤه رفاقًا لنا..وفي نهاية كل أسبوع كان أقاربنا يأتونا ليزوروا جدي وجدتي كما يدعون..أما في حقيقتهم؛ فقد كانوا يحضرون لمنزلنا لأننا نشعرهم بالمتعة الخلاقة؛ فمنزلنا ومنزل جدتي يبعد عنا مسافة باب.

في اليوم الأول الدراسي دخلت الروضة بسعادة مطلقة كسعادة الدراويش في الحياة، رتبت حقيبتي في تلك الليلة جيدا، ومن ثم وضعت بعض القصص المصورة ظنًّا مني بأني سأخبر بها أصدقائي، ولكن ذلك لم يحدث؛ لأني ربما نسيتها في المنزل أو فقدتها قبل أن أصل..فقد كنت طفلا مهملا كسولا خاملا يحب الكلام، ثرثارًا ينقل الكلام باستمرار، ويحبه أكثر من الحلوى والألعاب! فقد كنت أنقل الكلام لأمي دوما عند الغداء، وعن ما صنعت في يومي.

ربما هي دلالاتي الأولى على إصابتي بثنائي القطب، لكنها بلا شك تجربة منحتني الكثير؛ فكما الصمت يعلم..فالكلام أيضًا يعلم.

في أول يوم دراسي كان الجميع متحفزًا، خاصا إخوتي كانوا يترقبون ماذا سيصنع أخوهم المدلل..فعندما ذهبت استقبلتني «أبله» حنان بالود والقبلات وفي الحقيقة كدت أن أضربها على رأسها، كانت «أبله» حنان معلمة ذكية غبية في بعض الأحيان! شابة لا أتذكر منها إلا شيئين: الأول، أنها كانت تدافع عني عندما أُضرب من زملائي، والثاني حفلة نهاية السنة حيث كانت ترتدي لعبة العرائس الأسد، ومن ثم رفعت يديها لتسأل بذكائها من نحن؟ دون أن تغير نبرة صوتها الأصلية؛ فأجاب الأطفال جميعا أنت أبله حنان؛ مما جعلها تشعر بالخجل أمام جميع الأمهات.

حتى عندما دخلت المدرسة كنت مجتهدًا، بالرغم من اصطناعي للمشاكل في تلك الأعوام..كان أبي مفعمًا ومولعًا بالمنطقة الجنوبية في المملكة، كان يأخذنا إليها كل عطلة، ففي الجنوب تشكلت لي الكثير من الرؤى، حيث الجبال الخلاقة كانت ترمي في نفس الطفل فكرة صلبة عن الحياة، وعندما نعود نجلس طويلا نحدث بها أصدقائي والآخرين عن ما صنعنا هناك، وبين يدي الكثير من الصور..كنا نستمتع أكثر من غيرنا ممن يذهبون إلى خارج المملكة من أصدقائي، الينابيع والطبيعة هناك في الجنوب كانت توحي بالكثير من الأشياء في نفسي، حتى المدينة؛ فقد كنت أتجول فيها لكني لم أكتشفها في طفولتي بعد مثل الآن، والكثير من

الصور في حقيبة أمي عن طفولتنا في الجنوب هناك، فقد حدثت الكثير من الذكريات الجميلة بين الجبال، الخلوة العائلية شيء يرمي في نفوس أفراد العائلة الاستقرار..هكذا يزعم أبي دوما!

حينا القديم فجأة وبلا مقدمات بدأ ينمو وأصبح لنا فيه أصدقاء صنعنا معهم ملعبًا رمليًّا نلعب فيه كل يوم بعد العصر، وكحال الشبان هنا في المنطقة..كان ذلك الملعب يحمل في غيابته الكثير من الجدل؛ فقد كنا نتعارك على سيادته ولمن تُصبح الكلمة العليا فيه! أتذكر أنا وفريقي سيطرنا عليه؛ فضربنا بقية الأولاد.

وفي المدرسة في مرحلتي الابتدائية زاد شغفي بالكتب؛ فقد كنت مشاركا بالأندية هناك، وحيث كانت تقام في مدرستنا الكثير من المعارض للكتب؛ مما يجعلني أحصل على الكثير منها بالرغم من أن معظم الكتب كانت قصصًا مصورة، وقصص أطفال عديمة الخيال.

في الطفولة لا تحدث تحولات إلا ما يحدث للأسرة..نكذب عندما نقول بأننا فهمنا الحياة منذ تلك اللحظة؛ فكل الأعمال يكسوها الطيش والتخبط.

وبين المرحلة الأولى إلى نهاية المرحلة الدراسية/ الثالث الثانوي، حدثت الكثير من التحولات في شخصيتي والكثير من المواقف حدثت جعلتني أتحول من طفل عاقل يهتم بأشيائه إلى فوضوي لا يهتم إلا بنفسه، ولا يحب المشاركة في تنمية شيء بعكس طفولتي؛ فقد كنت متحفزًا لأي

عمل فيه بذرة للعمل الجماعي أو التنموي، إن جاز التعبير، ففي الصفوف الأولى شاركت في مسرحية عن التوعية للأمراض، كانت المسرحية بسيطة وهي بأن يدّعي أحد الزملاء أنه يعاني من الصرع..يصرخ في الطابور الصباحي، ومن ثم يقوم بإنقاذه باقي العناصر في المسرحية، كانت بسيطة إلا أنها أثارت دهشة الجميع حتى أنهم شكرونا عليها بعمق.

وفي بداية المتوسط تعرفت على الأجهزة والحواسيب؛ فقد اشتريت جهازًا ووضعته في غرفتي، كان بمثابة التحول الحقيقي في حياتي؛ فقد تعلمت الكثير فيه والكثير من اللغات البرمجية تعلمتها في سن مبكر؛ مما جعلني صاحب رؤية طائشة تبحث دوما عن لذتها الشخصية، دون أن تكترث لما هو سائد حولها.

في تلك السنوات زاد ولعي بالكتابة..أتذكر ذات يوم كنت أنا وأخي وابن جارنا في رحلة إلى الرياض، وعند قرية تسمى صلبوخ فقدنا معالم الطريق..كانوا قلقين للغاية إلا أنني كنت غير مهتم، وأكتب ذكريات عن الموت والفقد.

تجربتي في الحياة ينقصها الكثير، إلا أن الكتابة منعت عني ذلك الإحساس بالنقص.

كانت لجدي مزرعة تبعد عن المدينة ما يقارب خمسين كيلو متر.. كنا نذهب إليها كل نهاية أسبوع، كنت ألعب مع الغنم وأسبح في البركة دون خشية من أن يصيبني عارضٌ ما، كما كنت أقطف الثمار مع العامل، كان شابًّا أتى للتو من بلاده، كان يحبنا وكنا نكتشف معه ما تحت أراضي المزرعة ظنًّا منا بأننا سنجد كنزًا يجعلنا أثرياء، ونتخلص من المدرسة، حتى أني قمت بتربية الحمام فيها؛ فقد كنت أملك أعدادًا كبيرة منها، حتى في منزلي كان لدي عش للحمام أنقل بعضها من المزرعة والعكس.

وفي نفس ذلك السن كذلك تعرفت على الشارع؛ فقد بدأت أسهر خارجه، كان ممن حولي يسخرون من قيامي بأشياء بريئة كالقراءة.. فابتعدت عنها قليلا بسبب تلك السخرية؛ مما جعلني أتيه في كومة من الأفعال المجنونة!

وقبل أن أنسى كان هناك عند المقبرة رجل مصاب بمرض نفسي لا نعلم ما هو، كنا نجلس دوما في آخر الليل..نسمر معه، هذا عندما بلغت من العمر السابعة عشر..كنا نشرب معه السجائر ونستمع إلى قصصه الغريبة عن الحياة، ونسخر، ولم أكن أتوقع بأن تلك السخرية ستطأني ذات يوم.....

تماما الطفولة فلسفة، وتماما النور جنون، وتماما الظلام تيه..والمشكلة بأنَّ «لو» لا تليق بحجم ما مضى، ولكن لو كنت أعلم منذ تلك اللحظة بأني سأمارس الحياة بهذا العنف؛ لما تواجدت فيها أو ربما غيبت نفسي

في الظلام من تلك اللحظة، الإنسان كائن يملك إرادة مطلقة في الحياة، يعبر بها عن وجوده الحر، الطفولة دليل قوي على تلك الإرادة..أن نأكل وفق ما نريد، ونعبر عن ما نريد بلا خجل..حتى أننا نرمي ما لا يعجبنا دون أن نبالي أبدا.

وكذلك من الصحيح بأن جسد الطفل لا يقوى على فعل المعجزات، لكني كنت أمتلك جسدًا لا يفتر، نشيطًا بشكل عشوائي غير منتظم!

عندما بلغت من العمر الخامسة عشر تحديدا بدأت بارتكاب الحماقات بذلك الجسد..كانت آنذاك تعجبني فلسفة وحدة الوجود والكثير من كتب التنمية؛ فقد كنت لا أطلع إلا على تلك الفلسفة ولا أقرأ إلا ذلك النوع من الكتب.

يعلم الله الإنسان بالمرض ما لم يتعلمه بغيره، يصرفه عن الظلام ليرى النور، يصرفه عن الشتات ليرى بصائر الأشياء والتي يكون فيها بعين المستقبل لا بعين الآن، والتي تفهم مضامين الأفكار والواقع وما يحدث خلفه دون عجل أو تلف أو حتى إفساد، يبتلي الله الإنسان على حجم المعرفة التي كان يعرفها، كنت أعرف الكثير من الأسرار عن الحياة منذ طفولتي.

من الكتب والأقاصيص التي يتجرأ عليها من هم حولي توهما بأني لا أعقل شيئا، وكذلك أخبرتني جدتي وجدي بحكايا عجيبة وغريبة كانت تصنع في نفسي علوًّا آنذاك.

ولقد كانت ترمي المكتبة في نفس الطفل رسوخا لا يمكن تهاويه حتى أن أمي كانت حكاياها عن الحياة جادة بعض الشيء؛ مما أدى إلى اكتساب المزيد من الفهم عنها، يكفي أنها علمتنى أن أكون مولعا بها ولا أرضى بأن أهزم، الأم هي الحياة، والكتب هي نتائج تلك الحياة.

يبتلي الله الإنسان على قدر الكلام الذي يتكلم به في الحياة، ولقد كنت طفلا ثرثارا بشكل لا يطاق..يظهر في التسجيلات بأني أكثر من يتكلم!

حتى أني كنت أكلمهم عن أي شيء، وفي كل شيء..ربما فتنة الكلام وقعت بها قبل فتنة هؤلاء المتكلمين..لأن الإنسان يغرم بما يخرج منه من كلام، أكثر من أي شيء آخر.

تلك المتعة لا تنافسها باقي المتع، وعندما يتناغم الحرف على الشفتين يشكل في طيه سعادة أبدية..حتى أن المرء يفتن بالعلوم التي تخرج من فيهِ أكثر مما يفتن بشيء آخر.

هناك طريقتان لتغتال طفولةً ما..الأولى أن تحدثها بالأشياء البعيدة عن تجربتها، والأخرى أن تدفعها للحياة دفعة واحده ظنًّا منها أنها ستجيد ذلك، وفي كلا الحالتين نخرج بفكرة واحدة وهي أن ذوي هؤلاء أفسدت الحياة طفولتهم؛ فينتقمون من أطفال آخرين!

(هوس..الظرف الأصعب للعقل)

إذا تكلمت مع الله؛ فأنت مؤمن، لكن إذا تكلم الله معك؛ فأنت مجنون .

– دوريس إيغان

توقفت عن التبول اللا إرادي فجأة، ودون مقدمات...مثلي مثل أغلب الاطفال حين يفعلونها بلا عذر معلوم، ويتوقفون عن هذه العادة دون سبب مفهوم، إلا أن العادة عادت مجددا في سن المراهقة! أتذكر أني أستيقظ من نومي ورائحة الفراش لا تطاق، كنت في سن الخامسة عشر، والخامسة عشر في مجتمعي سن رجولة، خصوصا تلك الأيام.

الأصعب علي من تقبل الأمر محاولاتي لإخفاء أثر البلل، الرائحة، اللون...كم كان يصعب علي ذلك!

في تلك المرحلة التي امتدت لخمسة أعوام، كانت هناك الكثير من الدلالات التي تشير إلى أني سأصاب بثنائي القطب..مثلا: اختلاق الكلام وافتعال النقاش مع الغرباء دون خجل، الجري لمسافات طويلة دون معرفة الاتجاه، اللحاق ببعض علامات الطرق دون مبرر، التحديق إلى السماء والحديث معها لفترات طويلة، بل عدم التفريق بين الجهتين اليسرى واليمنى..

طفولتي مضت بسلام، أما في هذه السن؛ فالأمر مختلف تماما..كل ما هنالك هو الجدل والحماقات والانفعالات، والكثير من التصرفات الأخرى غير اللائقة! في البداية كانت التجربة عادية رغم وجود هالة من الغموض تحيط بها، حتى تلك الليلة..الليلة التي تغيرت فيها طريقة فهمي لنفسي، كان الجميع نياما، وكنت أمكث كعادتي في غرفتي ولا أقصد غرفتي بالمعنى الفعلي، بل الغرفة الأخرى المستعدة دائما لسماعي والقادرة على التفاعل معي، كنت أسترجع بعض ذكرياتي.

تلك الليلة كانت البداية، الخطوة الأولى للداخل، صافرة الحكم التي أتت في وقتها لرجل غير مستعد، أو أتت مفاجأة لرجل كان مستعدا تماما...بصراحة لا أدري أيهما أدق! رأيت بعض الحركات المريبة من حولي، جرس البيت مثلا كان يرن طوال الليل، يرن دون أن يكون هناك أحد، ذهبت عبثا عدة مرات لاكتشاف الطارق دون أن يكون هناك أحد، افترضت وتوهمت أن واحدا من صبية الحي الأشقياء يزعجون السكان كعادتهم، وأثناء عودتي في إحدى تلك المرات إلى الغرفة، شاهدت رجلاً طاعنًا في السن يدخل غرفتي! مرحبا...يبدو بأنه الهوس قد أتى!!

في أول تشخيص طبي كنت من نصيب مرضى الفصام..الحمد لله أنه خطأ، أشكل تشخيصي على الطبيب لسبب بسيط.

كنت حينها قد وصلت لمرحلة حدة المرض واشتداده، حتى بدوت كمريض فصامي بسبب تشابه الأعراض.

كنت أرى شخوصا وهميين، وأسمع من وراء الجدار بعضًا من الأصوات الحارقة والحوارات الصاخبة، كانت حقيقية، لا تتوقف، لا تنتهي... واقعية أكثر من الواقع نفسه!

دخلت الغرفة... دخلت متتبعا الضيف الطاعن في السن دون أن يكون لي الخيار في تركه وشأنه..كنت أبكي، أبكي ولا قبل لي بالسيطرة على نفسي في هكذا موقف، كانت موجة الاكتئاب قد بدأت قبل تلك الليلة بعدة أشهر، وكنت فاقداً للذة، فاقداً للمعنى.. لا أستطيع التفاعل مع من حولي.

كنت قد طردت من الجامعة لإهمالي، الجامعة التي منها تنطلق أحلامي وعليها يبنى مستقبلي، حاولت صناعة الفرصة أو استجداء الحظ بأي طريقة كانت، لكن محاولاتي كانت بمثابة كومة قش سقطت في سم الخياط!

في تلك اللحظة لم أكن أعرف ماذا يمكنني أن أفعل، دخلت وراء ذلك الكهل فحسب! دخلت متوقعا الكثيرمن الأحداث والمفاجآت، وكل ما حدث أني دخلت الغرفة ولم أجد أحدًا!

بدأت الذاكرة تضعف وعادت الشكوك لتخنقني من جديد..هل أحلم يا ترى؟ كان الواقع يسير وفق سيناريو حلم مشؤوم، إلا أن الحلم يشير إلى أنني مستيقظ.. عدت لأتفقد المنزل، وكان الجميع نائمين، ولا توجد في البيت حركة تذكر...ولا حتى ذلك الطاعن في السن.

أتراها ترهات المقبرة؟ هل أخلد إلى النوم؟ أم ماذا يفترض بي أن أفعل! كانت الليلة الأصعب في حياتي، ذهبت لأحضر ورقة وقلم دون أن أعرف ما حاجتي بهما! الأصوات من حولي عادت لتتضخم لدرجة مرعبة، حتى توهمت بوجود حفلة في البيت لكنهم يخفونها عني.

لم أكلف نفسي بالبحث عن الأشخاص والأصوات وعن الحفلة من جديد..لم أستسلم بع، لكني كنت مشغولا بمحاولة السيطرة على العالم.. كيف؟ لا أدري.. ربما عن طريق الخلاص منه كيف؟ لا أدري أيضا!

ولم أكن أقوى على التدوين، ليست الماديات كل شيء كما تقول أمي، بيدي ورقة وقلم وأمامي قصة تحدث دون مساعدة مني، لكني فاقد للتركيز تماما، كانت التجربة الأولى، التجربة الأولى في الكتابة، والتجربة الأولى في فقدان التركيز التام! لأني أصبحت فيما بعد أعرف بأني دخلت في مرحلة اللا تركيز!

لكني لم أستسلم بعد، كان لا بد من أن أكتب شيئاً، وفعلتها...كتبت وصيتي، بصعوبة بالغة.

ثم نشرتها على صفحتي الخاصة عبر وسيلة تواصل شهيرة..ثم ذهبت لمحاولة النوم، النوم الذي كان غاضبا مني منذ ثلاثة أيام خلت، ولا يبدو أنه مستعد للصفح عني حتى اللحظة!

حسنا، لا بأس...أحضرت مسجلة وشريط كاسيت وبدأت أسجل

صوتي ببعض الأناشيد والأغاني القديمة التي كنت أحفظها، حاولت أن أرسلها لأصدقائي لكني لم أقوَ، كنت قد فقدت التركيز تمامًا.

ما زلت غير مستعد لأن أستسلم هذه الليلة..حاولت قضاء وقتٍ ممتع مع أصدقائي من خلال الشبكة، لكنها كانت الصدمة بدأت الهلاوس البصرية تتضخم...والروائح النتنة تملأ المكان، كنت جامدًا أو هامدًا في زاوية الغرفة، لا أعرف ما الذي يجب علي فعله وأنا قذر الرائحة! هل أتحرك..أم أكرر محاولاتي النوم..النوم غاضب مني، يبدو أني لم أعد قادرا على المقاومة..يبدو أني فشلت...حسنا، أنا أستسلم الآن.

ما معنى أن أستسلم؟ لاشيء يذكر، سوى أني فشلت في المقاومة، والفشل في المقاومة يعني الانجراف لتيار الهلاوس! صرت أكلم الاصوات وأرد عليها وأناقشها، وأفتعل معها الحوار، تماماً كما كنت أفعل مع الغرباء.

كانت الأصوات الصادرة من الفراغ محفزة لي لأن أخاطبها..لكن صوتي هو الصوت المسموع الوحيد، بقية الأصوات كنت أسمعها وحدي وبشكل حصري، وعندما يكلم المرء نفسه؛ فهو إما فاقد للمنطق، أو ربما هو الوحيد الذي حصل عليه.

كان الكلام عميقا وصادقا ومهما، وكأن السماء هي من تكلمني..

وكأن الوحي بدأ يتنزل علي.. الأفكار سوداوية متشتتة متعجرفة ومتغطرسة، أما أنا؛ فقد اتخذت قراري، القرار بأني سأخلص العالم.

على عجل...كتبت مجموعة من الرسائل بصعوبة شديدة وأرسلتها لأصدقائي، كان مضمونها: « لقد كشفت المنظمة سرنا...يتوجب علينا الهرب» وفي ثنايا الرسائل الكثير من الكلمات المبهمة والغامضة والتي لا معنى لها!

كم كان الهوس قاسيًا معي! كنمرود لا أستطيع أنا الضعيف فهمه أو التعامل معه بعفوية، عم الظلام عقلي وأرجاء الغرفة، النور يهرب مني دون أن أفقده، كان كلامي مع نفسي كثيرًا، ليس كثرثار، بل كرجل من فرط ما أفحم الكلام؛ أصبح لسانه ثقيلاً ويبتلع الأحرف!

فترت قواي...فترت من الكلام والقيء وكتابة الرسائل..ولملمت شظايا نفسي بصعوبة من بين الركام، إلا أني لم أنم.. لم أنم حتى مطلع الشمس.

في الصباح... استيقظ العالم عدا عمر، كنت ما أزال نائمًا في اليقظة، مضى الليل دون أن أشعر أنه مضى، ودون أن أفهم معنى الضوء الذي بدأ يتسرب إلى كل شيء عدا عقلي.

هل سبق وأن شاهدتهم الصباح بلون أسود؟ صباح كالقهوة التركية، أسود، ثقيل ومر.

وجهي الشاحب كان يشبه الوادي الجائع، ما زلت مصرًا على الثرثرة مع كل من أرى، شيء ما داخلي كان يوصيني بالحذر..أن لا يلاحظ الآخرون غرابتي، ألا تشعر عائلتي بهذا المستوى الجديد من الهوس، يبدو أن عقلي الباطن يخشى أن يفتضح أمري، الا أن عينيّ كانتا فضيحة... متسعة، مليئة بالدهشة والحماسة غير المفهومة بالنسبة لهم، لم تكن غير مفهومة فحسب! كانت مخيفة للأسف.

كنت أتكلم بجمل مسموعة لكنها غير مفهومة، وغير ذات معنى بل وغير مترابطة الكلمات! جمل متقاطعة تصطاد من بينها بعض الكلمات التائهة...منظمة، الأنبياء عادوا، زمن الخلاص انتهى، و...و...و...

شعرت أن كلماتي منطقية ومهمة، بل وذكية؛ لذا كانت تخرج من فمي بثقة منقطعة النظير، أما بالنسبة لهم؛ فكانت فاجعة! فاجعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى..صحيح أنهم اعتادوا في الفترة الأخيرة غرابة أفكاري، وكلماتي، وخططي وتخبطاتي..لكنهم لم يكونوا ليحتملوا هذا المستوى الجديد من الهوس...

كلمني أفراد عائلتي مجتمعين بشأن الذهاب لمكان ما قريب وهذا المكان القريب كان الطريق إليه أطول طريق سلكته في حياتي! أذكر أني توهمت مخرجا على الطريق السريع نحو اليمين وعليه لافتة كبيرة: شيكاجو!

لم يكن وهما حينها، كان واقعا حقيقيا أمامي، شعرت حينها بنشوة لذيذة لاكتشافي وجود طريق قريب نحو شيكاجو، المدينة المهووسة التي عدت منها قبل أشهر قليلة..لِمَ هي مهووسة؟ لأنها كذلك.

ألا يكفي أن الهوس المرضي القوي تعرف علي هناك، في شارع فسيح مليء بالأشياء التي لا أعلم إن كانت أبراجا ولافتات إعلان تجارية، أم هي أشياء لم تكن موجودة إلا في خيالي.

أذكر حينها أني فكرت بنمط مختلف؛ فقد كان الهوس واضحا جدا حتى لي! افترضت حينها أن أحدهم دس لي في مشروبي بعض الكحول؛ فتلك الأفكار التي راودتني هناك كانت أفكار سكير! كنت أشبه بعربيد خرج من حانة بعد أن طرد منها...أذكر أني لحقت بفتاة في منتصف الليل، كانت ثملة للغاية وبدا عليها أنها تبحث عن مأوى..حسنا... راودتني فكرة أني أنا القديس الذي سيحل مشكلتها وينهي معاناتها مع الليل، بل ومع هذا العالم البائس...أنا الذي سأجعلها تبتسم للحياة من جديد.....لكني وجدت نفسي في المنزل، ودون أن أشتري ما خرجت لشرائه لعائلتي....فقد نسيته تماما.

كنت أكسر كل شيء أمامي عندما عدت، وكان المطبخ هو المكان المفضل للتكسير، كنت أحاول تفريغ طاقتي الغاضبة بتكسير الأشياء، ويبدو أني لم أترك شيئا يستعصي على الكسر...حتى قلب أمي!

كنت عنيفا بتصرفاتي، وألفاظي خصوصا، إن أسوأ ما في الهوس هو العنف اللفظي! تجد نفسك مستعدا لتخسر كل شيء في الخارج، عسى أن يرتاح عقلك من داخله..

في ذلك الصباح المظلم زارني أحد المعالجين الشعبيين، حينها لم يكن المستشفى خيارا واردا، ليتهم عرفوا أن كل ما يجري ليس إلا عنوان الكتاب...وأن الكتاب لم يفتتح بعد صفحته الأولى.

أذكر أن المعالج الشعبي ذاك كان مصابا من جانبه هو الآخر بالهوس، قال بالحرف الواحد لوالدي: إن ابنك فتى مدلل يبحث عن فرصة ما ليفوز بقلب فتاة...زوجوه! ثم تغير تشخيصه فجأة ليقول لوالدي مرة أخرى: ابنك نمرود الجن يسكن جسده، والهيكل الذي ترونه أمامكم إنما هو خادم مطيع لأوامرهم، يقصد الجن! هذا التشخيص أفضل بصراحة، ومقنع بالنسبة لي!

حين يستخف البشر ببعضهم تولد الحماقات، ومعالجي الأول كان أحمق، والحمد لله أن حمقه كان ظاهرا لدرجة أن أحدا لم يكترث لكلامه، وإلا كنت في الهاوية الآن.

هو فقط خيارهم الأول لأن لأسرتي أحد قريب تعافى من مرضه على يد هذا الأحمق وفتن به، وأبشركم...أنا أعيش في مجتمع الجميع فيه يمارس مهنة الطب.

عقارب الساعة كانت بمثابة سياط جلاد، أو ربما عصي ساحر، كانت ترفض أن تبرهن لي ما الفرق بين الواقع أو الخيال، حتى أنها كانت تمشي ببطءٍ نكايةً بعقلي الذي ما يزال يتتبع دقاتها رغما عنه...تعلمت من ذلك الشعور أن المرض لا يقول وداعا، بل ما يزال بك حتى يطرحك بسواده على السرير الأبيض!

طلبت من أسرتي أن نخرج لحديقة قريبة من منزلنا، وهذا ما حصل، وفي تلك الحديقة كانت النباتات تتكلم، تتكلم معي، ومع بعضها البعض، تشير إلي بأغصانها، تضحك معي حتى تهتز أوراقها، أذكر أن الأشجار دخلت في نقاش حاد حولي، بعضها قالت إني سأسجن، والأخريات قلن إني سأجن! كل ما كان هناك في الحديقة يتموج، كانت الرياح شديدة داخل عقلي، عقلي الذي تجاهل السجن والجنون معا... وقال لي مرحبا بك في الجنة!

كل كلمة قيلت في الحديقة سواء من الغرباء أو من والدي، أو حتى من نباتاتها كانت تصدر لي ومن أجلي، هكذا كنت أظن..و كان أبي ما زال يحاول معرفة أفكاري وسببها، أو على الأقل ما الذي يشغل تفكيري.. إلا أني كنت أردد لهم: قريبا سأعلن اكتشافي وأخبركم!

الصدمات الكبرى التي يتعرض لها المرء قد تمضي دون أن يستخلص منها حكمته الخاصة، أما أنا؛ فكنت أعرف بأنه المحك...تلك اللحظة شعرت بأنني سأقتلع من جذوري..شعرت أن هناك أمر ما لم أعتد عليه

يحدث، وهذا ما حصل، فبنهاية ذلك اليوم كانت الأشباح والأحلام والرجل الطاعن في السن أمور تتكرر أمامي كما لو كانوا أصدقائي القدامى...حتى أني لم أكن أميز بين من هم بشر حقيقيون أم مجرد خيال! في الحقيقة الأطياف التي كنت أراها كانت بمثابة الحقيقة الخالصة التي لا جدال حولها، ولا نقاش فيها..حتى أني حاولت اللحاق بهم والفوز بنقاش ودي..كان عقلي يخبرني، يقول بأن حارس المقبرة هو فرد ذو رتبة رفيعة في المنظمة..أتى ليسلمني ملفات مهمة جدًا.

يوم جديد، في الليل تحديدًا...ولم أنم بعد! التف أفراد عائلتي حولي ليكونوا مصدر طمأنينة يساعدني على الراحة والهدوء..تمددت على سريري، ووالدتي طلبت مني بأن أحاول أن أكون هادئا، حرارتي كذلك كانت مرتفعة لدرجة لا يستهان بها...تماما كما فعلت في طفولتي.

ولم أنم، فقط تظاهرت بالهدوء والراحة، ثم هرعت نحوغرفتي الغرفة التي أصبحت أكثر جرأة في تصرفاتها معي، حتى أن النوافذ صارت تتحرك وتصدر أصوات غير مألوفة! صرير أو ربما خرير أو ربما صراخ، صوت ما أعرفه جيدا، لكنكم لم تسمعوه في حياتكم!

حتى شروق الشمس، الشروق الأكثر عنفا، شاهدت الشمس تخرج من مغربها! أزف العالم على الرحيل، وأنا الوحيد الذي شاهد بدايات القيامة!! حاولت أن أكذب ما تراه عيني..فركت عيني دون توقف؛ فقد كنت أحاول أن أكذب نفسي..كانت صدمة كبرى.

أغلقت جميع أجهزتي وجميع النوافذ و كل ما حولي، ورحت أبحث عن فعل أو ربما أرض تحتضني...كانت المشكلة بأني لم أمت بعد!

تساءلت...لماذا يحدث معي كل هذا؟! في الحقيقة كنت قد قضيت وقتا طويلا لم أنم فيه بعد..الرؤية حارت والعين عجزت، والعقل صار شبيها بقطار سريع، كل ما فيه يزعج..ويتحرك بسرعة عالية.

سمعت أصوات الأذان، ودقات أجراس الكنائس في ذات الوقت يا إلهي، هل أهرب! هل هي لحظة الجحيم؟! ما الذي حدث..لا أعلم، لا أعلم.

بدوت أجري في الغرفة بشكل بلوري وأرمي نفسي دون أن أشعر بها..كنت أمارس الرقص بطريقة عشوائية ومجنونة إن جاز التعبير..فاقد السيطرة على نفسي فاقد السيطرة على ما هو حولي، بل حتى على نفسي! كنت فاقدًا التحكم بزمام المرحلة..الألوان أصبحت فاقعه وكأنها للتو أنزلت أو كأنها في مكان طاهر لم يدنس بعد، حتى الأبواب كذلك؛ فقد تحولت الجدران إلى منافذ، وأنا أسير بشكل مسرع لا أعرف إلى أين أتجه.. هل أدخل منها أم ألقي بنفسي في الهاوية، أم ماذا؟!

في تلك الثواني القليلة مررت بتجانس أو تبادل الحواس، فالرؤية أصبحت هي الشم، والشم أصبح التذوق، من السخف أن تحكي لأحدهم ذلك إلا أن هذا ما حدث معي تماما، كانت الروائح تتكلم، والأشياء تصدر روائح، والأصوات بدت وكأنها جيفة! يبدو بأني

سقطت في شراك الهوس والاكتئاب في آن واحد..أصبح ثنائي القطب حادًّا جدا، وأحاط بي من جميع الجهات، هذا على المستوى الشخصي، أما غرفتي؛ فقد بدت تجري وكأنها نجم أو فلك في السماء، الطاولة فيها لم تعد طاولة أنا من كسرها أو من رماها..فقد ضربتها بقوة بعدما كنت أردد كلمة «محكمة»..

كان على أحد جدران الغرفة لوحة في تلك اللحظة تغير شكلها، لا أعلم ما الذي حدث لها، لكن اللون فيها تجرد من مفهومه وتبدد، أو ربما تمدد! كانت الرسمة بداخلها حرف وتحول الحرف إلى أشكال وكلمات..كنت أظنها شفرة علي أن أفكها..حاولت تمزيق اللوحة، لكني كنت مخلصا للمرض... خفت بأن أفقد الرسالة الموجودة داخلها.

حتى أرض الغرفة تحولت إلى رقعة شطرنج، حاولت أن أصبح الوزير أو ربما الجندي لا أدري..

صار عقلي كإعصار فيه نار، والنار في فوهة بركان، من جرب الهوس يفهم بأن العقل لا بد له من أن يتلاشى!

قررت أن أخرج إلى أمي، عقلي الباطن قادني إلى الجنة القريبة مني، كانت تجلس كعادتها في الصالة، ودخلت عليها مسرعا وفي عجلة من أمري، وأذكر أني وأنا أتوجه لها أن الصالة أكثر لؤمًا من غرفتي..

فكل ما في الجدران من أسلاك كهربائية ظهر لي وكأنها أشعة جسد، بدا هيكل الغرفة يواري شحنات كهربائية حتى صدقت بأن هناك من يسمعني من خلالها، طلبت منها السكوت..من ثم إطفاء جميع الأجهزة الكهربائية في المكان.. المكيف، التلفاز.. الأنوار، حتى النافذة.

صرخت بحدة: أمي، أمي.. هناك من يراقبني... سأسجن.

كنت أجزم بأن المنزل يطير في السماء، سقف الصالة قد انقشع وكنت أرى منه السماء مليئة بالسحاب، أمي كانت تردد: عمر عمر، في واقع الأمر لم أكن مستوعبا أن اسمي عمر!

ثم سقطت، نعم سقطت وكأني نرد رماه طفل من قمة جبل، صحيح بأني حاولت العودة للجبل... لكن في الهاوية لا خيار لك سوى انتظار الارتطام بالأرض.

لا أعلم ما الذي حدث بعدها، هل فقدت الوعي، هل نمت؟! هل تكلمت... لا أحد يخبرني حتى اليوم... يخفون عني سر ذلك اليوم، حتى اليوم.

في المساء، كنت على سريري وبجواري رجل ما، بين الحلم واللا حلم..كل ما هنالك الكثير من اللون الأخضر وأنا أسبح فيه..عالم بريءٌ طاهر نزيه لا يعتريه صخب، رأيتني أجري في المروج مع الكثير من الخيول، ومن تحتنا تجري الأنهار..كنت في الفردوس.... يااااه! يبدو أني

أخيرا نمت، قال لي الرجل الذي وجدته جالساً بجوار رأسي : سمعت كلامك وأنت نائم، لا تخف يا ولدي، الموت مثل النوم.. وهذه سكرات الموت.

فتحت عينيّ في مكان مظلم تماما، ولا أعلم تحديدا ما هو أو أين هو.. لكن شعورا ما أخبرني أني في المنزل.

يبدو بأن أحدهم رمى قذيفة في المنزل؛ فقد كانت الأصوات مزدحمة فيه، وبالطبع فيها ما هو حقيقي والكثير الكثير من الخيال..كنت خائفًا كطفل فقد أسرته، خوفي زاد لدرجة لا يمكنني فيها ردعه! حاولت تهدئة نفسي ببعض الكلمات والتمتمات بأن الحياة مقرفة، ولا جدوى من التواجد بها وأن مواطن الأبطال ينتظرني هناك بالخارج عنها، كنت أظنني سأموت...صدقت ما قاله الرجل بجواري قبل أن أعرفه حتى! لكني قررت الصلاة، لا شيء يمكنه إنقاذي ومساعدتي كما ستساعدني الصلاة، وهذا ما نهضت عن فراشي لأجله، وصليت وفي تلك الصلاة لم أستطع قراءة شيء.. في الحقيقة نسيت الصلاة، نسيت كيف يمارسها المرء!

حتى ما كنت أحفظه من القرآن بدا وكأنه خيال، لاحظت أمي ذلك؛ فبدأت بالصلاة أمامي وطلبت مني أن أقلدها..وكان ذلك الرجل يردد :يا رب حسن الختام..اشعرني أن نهايتي مأساوية!

لا تركيز، لا شيء يذكر، ولا عقل طبعا، قلت في نفسي إما أني فقدت عقلي أو أن من حولي فقدوا عقولهم، وكان الرجل يطلب مني طلبات غريبة... بدت لحظة وداع، ومرت علي كل الذكريات القديمة كشريط سينمائي.. طلبت الماء وكان طعمه نرجسيًّا ومغرورًا كشراب التوت.

كنت أتصرف بثقة، يبدو أن سرها النوم الطويل، الذي لم يتجاوز الساعات الثلاث في الحقيقة، شعرت بتصلب الوقت، ويحدث أن يتصلب الزمان لشخص يسقط، وكان سقوطي ذريعًا.

في الصلاة...جاءني الشيطان بصورة ملاك، كنت أرى ملاكا وأعرف أن الملاك الذي أراه مجرد شيطان يمثل، لكني كافحت كثيرا لتكون صلاتي حقيقية، ثم عدت للسرير..وتمددت..ثم طلب مني الرجل رفع إبهامي.. ردد معي: أشهد..أشهد...نمت، أيقظني، قال: لا تغادر إلا وأنت متفوه بها.

لا أستطيع الجزم بأن هذا هو الشيء الوحيد الذي قاله أو الذي حدث..إنما هذا الشيء الوحيد المؤكد الذي كان يستنتجه عقلي.

الألم والجنون..لا شيء سواهما

سمّاني الناس مجنونا، غير أن العلم لم يكشف لنا بعد فيما إذا كان الجنون ذروة الذكاء أم لا.

- إدغار آل بو

و ظن أنه الفراق...

ظننت أني مت... أن الملائكة أصبحوا أصدقائي، تصرفت كميت فعليا؛ فتلك المنطقة التي رأيتها في منامي كانت نقية وصافية، لم يسبق لي أن رأيت مثل ذلك الصفاء في الدنيا.

تأتي الأحلام بعد الهوس كبلسم يلطف كل جرح أصبنا به.. ولأني مجروح؛ صدقت كل ما قالته الأحلام...

لأنها كانت صادقة، لامعة، خالية من الشوائب، وبالرغم من أنها الأحلام... لكنها حقيقية!

ولأنها حقيقية، صارت كل تصرفاتي وأفكاري تقوم على أساس واحد... أنا في الجنة، في الفردوس، أفعل ما أشاء دون حساب ولا عقاب ولا حتى نظرات غريبة من الآخرين، يصدع صوتي بالحق في السماء... افترضت أني ألقي الخطاب الأسمى لي هناك في العلية، وصدقت افتراضي لأني في الجنة، وكل شيء في الجنة حقيقي!

هناك في الجنة، كنت في انتظار الأموات السابقين من الأمم الغابرة، بحثت عن الرسل والشهداء والصديقين والفرسان وكل ميت سمعت به أو قرأت عنه في حياتي، ولطالما تساءلت هناك إن كنت سأرى عيسى... عيسى صعد للجنة دون أن يموت..هل سيكون في مكان واضح نراه فيه نحن الموتى؟

لم يكن هذا كل شيء، للأسف! آمنت بأن روحي مسموح لها بأن تنزل إلى الأرض متى شاءت وكيفما شاءت، كانت هذه الفكرة خطيرة؛ لأني سأكون على الأرض مؤمنا بأني نزلت قبل خمس دقائق فقط من السماء، إلا أن الفكرة لم تعد على ذلك القدرمن الخطر بعد أن اعتقدت أني تحولت من إنسان إلى ملاك، تماما كما يتحول المراهق إلى شاب أو الرجل إلى كهل..كانت أخطر لأن الملاك معصوم...ولأني معصوم؛ فكلما أفعله هو حق وفضيلة، باستثناء أني كنت أتقافز يمنة ويسرة محاولا الطيران.

حاولت أن أطير... وكنت أقفز بقوة إلى جميع الاتجاهات، ولكن لا جدوى، لست ملاكا، ولست في الفردوس، لكن مرضي ليس مستعدا بعد للاعتراف.

هنا في الأرض لا ملائكة ولا جنان..هنا المعاناة وحدها، وحتى الأشياء الجميلة التي لم ترُق لنا؛ راقت لنا حسب حجم تعبنا ومعاناتنا، ومن يتوهم غير ذلك فإنما يدنس الجمال.

وأنا واحد ممن دنس الجمال، ممن اعتقدوا أن الأشياء جميلة بفطرتها، استعبدني المرض، كما أنه في بدايته جلب لي بعض العار، كنت أرفضه، أما الآن؛ فلست شجاعا لأرفض ما لا أشعر به، فقط أجاريه وأداريه، ويبدو أنه غير مستعد لمبادلتي نفس الشعور...أصبح سريعا ومتطورا وناقما بشكل لا يعقل، هل يفعلها غضبا مني لأني رفضت في البداية تقبله؟

أن تموت يعني أن تغادر، لكني باق هنا...جسدي لم يلف بالقماش الأبيض، ولم يدفن بالتراب، كنت خائفا من أن أوضع في قبر وحدي، ثم أفهمني المرض أن هذه الحالة ميزة خاصة بي! أشبه بمكافأة على ما مر بي من معاناة، وما مررت به مع الظلام، كما أني أنقذت العالم.

التجربة الأولى مع الهوس كانت خجولة، خجولة كمعظم الأشياء في البداية، هذا في البداية...أما فيما بعد؛ فقد أصيب الهوس بالهوس! كانت المعادلة فاي لا منتهية.

إذا أردت أن تمرض مرضك الأخير فاختر المكان المناسب، مكان يليق به أن تغادر العالم منه بسلام، عني أنا...أنا أرفض الموت خارج مكتبتي الصغيرة، قد لايكون لأحد الفرصة باختيار المكان الذي يغادرمنه الحياة، لكني ظننت نفسي قادرا على الاختيار، واخترت مكتبتي، ببساطة لأنها السبب الوحيد الذي استطعت به أن أواجه الحياة، ألا يليق بي أن أواجه بها الموت أيضا!

يسكن المكان الإنسان أكثر ما تسكنه نفسه، لم يكن أحدهم يعرف ما الذي يسكنني، ربما السماء أو الطيور أو السنابل الخضراء، أو لربما الحجار والأشواك، كنت أشعر أن كل شيء في هذه الحياة كان يعيش داخلي، حالة تلبس واسعة تشمل الجمادات والأشياء الحية أحيانا.

وعندما يتلبسك كل شيء يحكم عليك أنك مهووس، وكلمة مهووس تضيف إلى الضياع ضياعًا آخر لا يرحم، كنت أردد على من حولي جملاً رنانة كانت تتقافز في ذاكرتي و تفكيري، ببساطة كنت قد قرأتها في أحد الكتب، كنت أتوهم بأني أمكث داخل تفاصيل رواية ما.

أتذكر حين ضربني أحد المعالجين الشبعيين ظنًا منه بأنها الطريقة المثلى التي يهدأ بها هذا الجسد النحيل، وعندما شتمته بقسوة بعبارة اقتبستها من كتاب ما كواني بالنار في رأسي! شعرت بأنه ومن معه قد أحرقوا جمجمة هذا الشاب الضعيف.

نعم، مارسوا علي تلك التجارب البليدة حتى النخاع، وكانت رائحة جسدي عندها كرائحة لحم مشوي نتن لا يمكن لك أن تأكله...إلا أنهم أكلوني كما رأيت في مرآة الهوس، ساد الظلام مرة أخرى وكأنه لا فرار! وحين يأتي الظلام فإنه يأتي محملا بحقائب الأوهام...

في تلك الأيام الصعبة لم أزر المستشفى بعد... يبدو بأن للجهل جذورًا عميقة هنا.

لا يمكنني نسيان تلك الشهور الثلاثة التي كنت قابعا فيها في غرفتي، ويرتاد المعالجون والأصدقاء الغرفة كما لو كانت مقهى شعبي على قارعة حي قديم..

الأيام كانت تمشي ببطء شديد، وعقارب الساعة سليطة الدقات، كانت مستفزة جدا، ومن فرط استفزازها لعقلي فقدت ترتيب الأيام والأشهر والساعات بطبيعة الحال، ونسمات الهواء الحارة كانت تعطيني نشوة عارمة تحفزني على الأفعال الطائشة...ولك أن تتخيل أن كل هذا يحدث وأنا ما أزال في الجنة، ومن حولي تلك المساحة الممتلئة بالمشروبات الطاهرة واللون الصافي والأصوات النبيلة، أحيانًا..كانت وجوههم تنقلب كأشباح أتت من الجحيم لتلتهمني وتأخذني هناك، وكنت أتوهم بأن ملائكة الرحمة والعذاب تتصارع من أجلي..كل منهم يريد أن يأخذني، إلا أني فضلت العدم، فضلت أن أكون نسيا منسيا..يا ليتني مت قبل هذا!

كانت هناك حمامة على نافذة غرفتي تأتيني كل صباح وأطعمها حتى في مرضي، أصبحت تتكلم وتنشد بأناشيد غريبة

قم يا كسول...

ومرة كانت تغني وهي تنظرنحوي

أين الطعام... أين الطعام

وكنت أتفاعل مع نغمها، ولا أبالي بالمعالجين من حولي، البعض منهم بدأ يحلل علتي وكأنه سقراط، والحمامة كانت تغني مرة أخرى

لا تصدقهم، لا تصدقهم

حدث الكثير من الأشياء التي لا يمكن لأحد أن يسمعها لأنها سخيفة ومؤلمة ولا تصدق، ولم أكن أهتم، كل ما حاز انتباهي حمامة النافذة التي بدأت تأتي بصديقتها، وكانوا يرددون مع بعضهم نشيد السلام، وكنت أشاركهم النشيد الذي كنت في حاجته.

يستطيع الإنسان مع آلامه أن يمرر أي شيء يريد ليصدقه الآخرون، حتى أن من يريد أن يجعلنا نصدقه عليه أن يتحدث عن الألم أولا، وعليه أن يكرر تلك المجموعة من التجارب التي ننتصر فيها على الظلام.

الكلام النمطي المكرر عن التجربة في الطب النفسي يدعوك إلى الاشمئزاز، إلا أن ما يدفعني للاستمرار في حديثي عن تجربتي أن العتمة هنا على هذا المكان من الخريطة لا أحد يتحدث عنها، وخشيت بأن يزداد سوادها أكثر مما هو عليه، لهذا فضلت مواجهتها...وأن تواجهها عليك أن تفقد فوق فقدك القديم المزيد من الأشياء.

ولأني فقدت كل شيء...ولأنه ليس لدي ما أخسره؛ فأنا الآن جاهز لاكتساب أي شيء وكل شيء، وأول ما أحتاج لاكتسابه القليل من الاحترام.

علمتني تجربتي مع الكتابة بأن مرضي جميل، وحقير في ذات الوقت، وأن من السهل التعايش معه وتخطيه، وعلمتني الكتابة أيضا أنها تجعل من الأشياء التي لا يمكن لنا تحملها أمرًا عاديا جدا، وكأنها ضرب من الخيال حتى أننا نستطيع عندها أن ننتقدها بسهولة.

حين يسود الخيال فإننا نفتقد زمام الواقع...وقد ساد، إن أبسط ما يقال عن ثنائي القطب أنه مرض حقيقي يلوي ذراع الخيال..يجعل المصاب به يسكن في تلك المنطقة التي لا وعي فيها، للدرجة التي نفقد معها القدرة على مكافحة هذا الشيء الذي يلوي أذرعنا.

عاد الرجل من حولي ليطلب مني قراءة بعض الآيات، وهو ما فعلت، كنت أقرأ الآيات وأرددها وأنا خائف خانع، يملأني شعور بالرهبة...أخشى أن يضربني أحدهم، أو أن تخسف بي الأرض.

قال لي: يا بني، ارفع رأسك...فالحياة رفع رؤوس

خرجت إلى الشارع بعد ذلك الحلم، يبدو أنهم قرروا بأن يذهبوا بي إلى المستشفى، يبدو بأني خرجت إلى الأرض/ تلك المساحة التي لم أعرفها منذ فترة طويلة، كانت صلبة وفاقعة تتحرك إن صح التعبير، والتي نكن في هوسنا فوقها أضعف بكثير منها، من جرب الهوس يعرف جيدا معنى أن تطير وأنت في مكانك، وأن تعانق السحاب عند لحظة ممزوجة بالألم الناتج عن سعادة مطلقة؛ فكل الأشياء فيه تصبح مائعة وصلبة.

وفي أول لحظة في المستشفى، كنت مقيدًا على السرير تماما..كنت أشير إلى السماء وأردد بصوت عالٍ..أصرخ دون تراجع: يا أيها الحمقى، طلبت منكم أن أخرج إلى النبلاء وأنتم هنا تأتونني في مكان مدنس، لم أكن أعرف أنها المصح، كل شيء كان أبيض وبلوريًّا، كان يتموج، وكانت هناك على الجدران صورة للحرم المدني، كنت أبكي وأنا أصرخ وأقول لهم: دلوني على مخرج أبرر به تلك الدعاوي..ربط على قلبي الطبيب وقال لا تصدق ما يحدث في الخارج..العيادة ستضع حدا قاسيًا لألمك.

كان كل ما في المصح نظيف، إلا أنا متسخ بالذكريات والألم أو ربما جميعنا..المصحة كانت مزدحمة بالخيبات والمعاناة الحقيقية..بل مما زاد الأمر سوءًا أن الجميع هناك متسخون بالعمل الجاد المرهق للفؤاد، يا لشجاعة الأبطال هناك! أن ترى الإنسان يتهاوى.

ناولني أحدهم شطيرة، بعدها حُقنت بالمهدئات، عندها بدأ عقلي يستوعب بأن المرحلة القادمة هي جدل..كانت تلك الشطيرة الأكثر لذة، والأكثر دفئًا.

أخبروني بأني خرجت قبل هذا اليوم إلى مستشفى أهلية في نهاية الشارع كان مقرها، لكن تشخصيهم ساذج! فلقد ظنوا بأنها عوارض عادية لا أتذكرها مطلقا، ولكن في خروجي الأول إلى المستشفى جعل من الأموال في المنزل تُستنزف؛ مما أدى إلى تسليمي للمعالجين الشعبيين.

آآه لو أن الأموال تخفف شيئًا من المرار..كانت التجربة مع المعالجين بمثابة سرقه لأموال! كنت متمددًا على سرير المستشفى..هنا لا قيود؛ فحصني الطبيب وهو يبتسم، من ثم قال دعوه فإنه سليم يدعي..فلربما فعل فعلة يخافها! الكثير من الكلمات كانت تأتي على هذا الشكل.

أتذكر حتى شكل الطيور كانت كبيرة وضخمة..وأنغامها تخيل إلي أنها كلام تكلمني به من بعيد وتحمل في طيها رسائل مشفرة كذلك، تحاول الصغيرة أن تعطي إشارات ودلالة أقوم بها، كنت أصرخ من الألم وأحذرهم بالله بأن هناك عارضًا سيضرب البشرية، وفي المستشفى قيدوني على السرير..ثم أتى رجل أسمر اللون ويبتسم.

كنت أظنه إبليس، إلا أنه من أفضل المعالجين؛ فعندها انتهت كل آلامي، حُقنت بالإبرة مرتين، مرة في كل مواطن الألم، ومرة في تخاذل القطب اللعين، ثم عدت إلى المنزل.

لولا أمي لكنت في المصح منومًا؛ لأنها أقسمت بالله أن تقلب الدنيا على عقب إن لم يعد ابنها إلى المنزل.

وأنا في طريقي إلى العودة للمنزل كنت فاقدًا للوعي، حاول من نقلني إلى المنزل أن يجعلني أستيقظ..رغم أني استجبت لتلك التنبيهات، إلا أنني تفوهت بالكثير من الكلمات..لا يمكنني تذكرها؛ فمخي توقف تماما عن العمل.

فالطيور كانت تكلمني بكلام ناعم أصدق بكثير من كلام الحب الصاخب، وأستجيب لكلامها، بل الجمادات والأشياء وكل ما في الوجود كان يخاطبني، ولقد كنت ضعيفا وذليلاً بعض الشيء، إن صح التعبير، يفهم كل الأشياء عكس ما هي عليه، حتى أن كلام الرفاق كنت أظنهم رسائل من الطراز القديم، توحي بشيء غامض، أنا المأمور بتحرير العالم!

***

وها قد بدأ الأمر يختلف، اعتدت الهوس والاكتئاب...تصالحت مضطرا مع ثنائي القطب، ولم أعد ذلك الخائف الخانع في زاوية غرفته، الخبرة الآن تلعب دورها كما تفعل دائما في كل شيء..قررت فجأة أن أمارس الحياة بطبيعتها، أن انزل للشارع لأن العزلة وحدها لا تجدي، خرجت على عجل ودون تفكير مسبق، خرجت غير مبالٍ بالناس ونظرتهم نحوي، مشيت بلا توقف ولا وجهة...ولا اتزان للأسف! هائم على وجهي كسكسير ملأ جوفه من الخمر، لم يكن هذا كل شيء، بل توقفت أيضا عن استخدام الدواء، وأن تتوقف عن استخدام الدواء؛ فهذه لذة لا تعادلها لذة! كأسير تمكن أخيرا من كسر القيد والمشي بحرية...هل هنالك ما هو أجمل؟ لا أظن!

كان العقار الذي توقفت عنه عبارة عن مضاد ذهان شهير في عالم الطب النفسي، يدعى زبركسا...أتذكرون حين قلت لكم أنا رجل يقتات على مشتقات الليثيوم؟ تخيل ما قد يحصل لرجل توقف عن أكل قوته.. لا أنكر..كان الأمر في بدايته غاية في الروعة، والتجربة بحد ذاتها كانت مغامرة تستحق أن تعاش، أعود للشارع..ففي ذلك الشارع تلبستني فكرة عظيمة وهي أن أقوم بفك شفرات الشارع على بنية تحليلية صنعتها بنفسي..يبدو بأني بدأت أؤمن بعبقريتي ولا مجال للردة عن الإيمان!

في تلك الفترة تحديدًا بدأت تدوين بعض الهرطقات التي أسميتها بالعلوم، وفي العلوم صنعت قاعدة في علم الجنون...هكذا أسميتها، ودونت أيضا في علم الشباب، وكتبت عن قواعد اللحظة...وحتى الشاي، ألفت فيه كتابا يتحدث عن ضوابط جلسات الشاي، والطريقة الأفضل في صنعه، بل وإتيكيت الشاي، كانت أفكاري المدونة غير منطقية، ولا ألام..فقد كتبت في اللحظة التي يخرج فيها العقل عن مساره!

وتماديت... اكتشفت نظرية تحليلية تربط بين الأشياء، كما لو كنت آينشتاين، أو فيثاغورس؛ فمثلا..الرقم خمسة كان يشير إلى دلالات معينة يفهمها عقلي بصورة مختلفة لا يمكنني شرحها هنا، ولم يكن هذا كل شيء...بل تماديت أيضا ومن جديد لأصنع الكثير من الأشياء الساذجة، وأتبنى الكثير من الآراء العبقرية حينها....والحمقاء الآن حين أتذكرها

للأسف! تماديت حتى بدوت كمخضرم لا يبالي بأي شيء، ينصب اهتمامه على الكتابة والعمل والتخطيط، وقد لا يكون عيبا لو اعترفت أني لو لم أفعل ما فعلته؛ لكاد عقلي أن ينفجر من شدة الضوضاء المتراكمة بعضها فوق بعض..

فعليا... طبعت تلك النظريات على الشارع، أشك اني زخرفتها على الجدران لتنبيه المارة وتعليمهم، لماذا؟ لسبب بسيط... الخبرة تلعب دورها دائما، وعند الخبراء...لا شيء يستدعي التوقف..على نفس الشارع كنت أقف أتأمل اللوحات الإرشادية والإعلانية، كنت أشير إليها بسموٍّ، وأعطيها بعض الدلالات الخاصة في عقلي، كل ذلك يحدث بينما أنا مسرع وفي عجلة من أمري..كنت أحاول اللحاق بالمجهول!

الرغبة الشديدة في الانتقام، شعور كان يلحق بي أيضا، ولا أدري لماذا...يلحق بي وكأنه مصاب بثنائي القطب يطارد المجهول مثلي! والإغواء شعور آخر لا أعرف ماهيته، لكن مفردة الإغواء تكررنفسها في عقلي، أفكار كثيرة تكرر نفسها..مفردات مختلفة، مشاعر متضاربة، كانت كلها في عقلي تعمل عمل البرق في ليلة مطيرة هجرها القمر.

شيء ما كان يسكن داخلي، وكنت أعتقد أن عليه أن يُشاع..ينتشر بين الناس ويُعرف، حتى وإن كان في شكل رقصة يكسوها الغباء!

لم أصرخ هذه المرة، ولا أدري..هل لأني كنت مستعجلا؟ أم هي الخبرة تلعب دورها مرة أخرى! رباه، أنت تعلم كيف كان عبدك الضعيف المرهق المتعب يشير نحو لوحات الشوارع بعجرفة..كيف كان يحللها بصوتٍ عالٍ ومسموع أمام الجمهور، واقول الجمهور؛ لأني كنت في مسرحية، أنا بطلها!

والسكون التام لعنة أصابت عقلي، حتى أن عقلي نزل عند سلم قدمي حتى لامست قدمه الأرض، ومشى لمسافة طويلة، تركني وأنا أقوم بتلك الإشارات المجنونة، لم أعد أفكر «أين ذهب عقلي»، إنما أفكر في: «أنا... كيف لم يداعبني التعب؟!».

لم يتخللني التعب وقتها، ولا حتى القلق، ولا الخوف، ولا الخجل ولا أي شيء آخر...كنت مخلصا لإيماني، هل يلام رجل يخلص ويؤمن؟ مهما كانت بواعثه؛ فالإيمان يستحق، كان كل ما يحدث وقتها تجانس الواقع مع الخيال، وهذا من صفات الإيمان، لكن إيماني تمادى مثلي – سامحه الله –.

لم يكن هنالك أحد يردعني أو حتى يوقفني، ولا شيء أصلا كان يستطيع أن يوقف حركاتي وسخافتي إن شئتم القول! كل ما كان هنالك الرغبة في المضي قدما نحو الضوء، والذين يذهبون للضوء لا يلبسون الأحذية، أذكر أني كنت حافيًا.

المشكلة الوحيدة التي أرهقت نفسي يومها...كانت في البشر..البشر أحدثهم عن خطواتي نحو الضوء، بينما كانوا يكتفون بالنظر إلى قدمي الحافية!

إن المجانين حقا هم من يخافون من تلك المساحة التي يفقدون فيها عقولهم، رغم أنهم وُلدوا دون عقول وذاكرة، ولم يمسسهم سوء حينها....بل كانوا في قمة جمالهم وسحرهم.

قبل أن أنزل لتجربة هوسي في الشارع، كنت أجلس أمام النار لساعات طويلة، لم أحسم أمري حينها؛ فقد فكرت في إشعال النار في مرضي؛ لأجعلها تنهشه وتنتقم لي منه! لكني خفت...خفت منها أن تطبخ مرضي حتى يصبح صالحا للأكل...فالنار تستحي من النعم، وتجعلها ألذ وأشهى!

لا نوم، لا راحة، ولا حتى رفاق يواسوننا فيما نمر به، حتى الكتب تخلت عن احترامها لي! لاحظت ذلك حين انتبهت لقراءتي التي أصبحت خشنة وفظة للغاية، صحيح، مشكلة أخرى...ظننت بأن هناك عصابة خطيرة تهدد سلم الوطن، واتصلت بالشرطة، ولم أكتفِ بالاتصال، بل وتتبعت مجموعة من الأشخاص، كانت قصة طويلة...انتهت بأن كتبت تعهدا بألا أزعج السلطات، كم هو جميل مُرضٍ! يجعل لأتفه الأمور قيمة ضخمة لا يمكن وصفها، إنه يجعل الصغير يكبر بلا نهاية...ولا حد، ولا قانون.

وعدت الضابط بأن لا أمارس تلك الحماقات، من المخجل حقا أن تكون رجلا مزعجا للسلطات!

أنا رجل يشعر بالخجل، يشعر بالخجل؛ لأنه فعل الكثير مما لا يصدق.

لا يصدق

المثقف الحق هو الذي يحكي لنا تجربته مع الظلام دون أدنى خجل، دون أن يتوارى خلف الألقاب؛ فيزيف لنا حقيقة ما مر به؛ فصنعه!

إنه لأمر صعب أن تتحدث عن جنونك، عن تلك المساحة التي تكون فيها حرا حتى من نفسك! طليقا كطائر دون أي قيد يصنع له قفصا يسمونه الخريطة، ربما يفهمك الجميع وفق طريقة لا تناسب معاناتك، لكن...على الإنسان أن يغمض عينيه ويتحدث، عليه أن يسافر بعيدًا عن الزمان والمكان...نحو نفسه وحدها، هي فقط من يستحق ذلك.

تعبت وأنا أحاول اللحاق بالضوء، لكني لم أستطع؛ ولأني لم استطع الوصول له؛ فبإمكانك أن تفهم كيف يفعل غيابه، لقد أعطى الفرصة للظلام أن يعود، وينتشر...ويسيطر، لا تفزعوا من الظلام كثيرا؛ فهو دلالة على ولادة نور ما...ولولادة ذلك النور الخافت كنت أتطلّع!

في تلك الفترة تحديدا، بكيت وقد كانت المرة الأولى التي أبكي فيها منذ خمس سنوات، يبدو أن الفؤاد كان قاسيًا، أو ربما لينًا لدرجة يبكي فيها على أتفه الأسباب؛ فقد بكيت عندما أخبرني أحدهم بأنه لا يحبني! كان بكائي عبارة عن نغم، يحدث أن يبكي رجل بعد مدة طويلة من الزمن؛ ليغتسل من هذا الصخب أو ربما يمكن قد توصل إلى مكنون ذاته.

كان الخوف من المجهول واضحًا في لُمَع عيني، ويرقات فكري والتواءات لساني..لكني لا أبالي؛ لأن الإنسان يستطيع بالخوف أن يكتسب كل شيء، وحين يفوز...لا شيء يستحق الخوف منه.

وأنا هنا لا أتذكر...أنا هنا لأخبرك أني كدت أنسى!

(التشافي..الخيار الذي تفرضه الحياة)

هذا العالم غارق في الآلام والمآسي من رأسه إلى قدميه، ولا أمل له في الشفاء إلا بيد الحب.

- جلال الدين الرومي

هكذا بدأت قصتي مع المرض..غريبة، والغرباء مخيفون...لكننا نحتاج لتحياتهم حين يلقوننا، لأسئلتهم لنا عن ديارنا..للمفاجأة والمتعة في أعينهم لرؤية ما نراه معهم دون أن نشعر بجماله مثلهم، هكذا بدأت قصتي مع هذا المرض الغريب، مدهش أن نغيب عن الحياة دون أن نموت، وكأن الموت حضر لمعانقة أحلامنا العظيمة، وتركنا نحن البسطاء!

وهكذا بدأت قصتي مع المرض غامضة، وما زالت غامضة، فبعد كل هذه المسافة خلفي ما زلت أشعر أني في أول الطريق، ليس الغموض أن لا تعرف...بل أن تعرف كل شيء، دون أن تكون هناك فائدة من المعرفة، دون أن تتمكن من الوصول للساحل المقابل!

تخيلوا...الأطباء قالوا لي: لا تسل! لا تحاول أن تعرف..تناول دواءك، وحافظ على نفسك فقط...من الأحمق الذي قال لا تسأل الطبيب! وماذا سيخبرني من غاب عقله عن غياب عقله..أن تسأل المجرب هذا حمق!

والحمق الأكبر أن تثق بالطبيب الذي يعرف الدواء جيدا، ويعرف المرض جيدا...ولا يعرف كم عانيت في حياتك!

لا تسأل عن أي شيء قالوا لي، لا تتكلم عن المرض، ولا تقرأ عن الأعراض الجانبية للأدوية، فقط تناولها! هل يحق لي أن أسأل من علم المرض أن يفعل مثلما قالوا؟ لماذا لم يسأل عني، لم يفكر بي، لم يقرأ عني... فقط حضر والتهمني دون مقدمات....حسناً إذاً! يبدو أنهم يحاربونه بنفس طريقته التي يعمل بها.

تلك المساحة التي أقطعها بالخيال والوهم أفضل بكثير مما يحدث لي على الأرض! لكن ماسلو يقول: حقق ذاتك، هذا الوهم يهدم ذاتي، يهدمني كلما قرأت نظرات الشفقة في عيون الآخرين، والحزن في عين أمي، لكني صنعت إطارًا لنفسي، ساعدني كارل بوبر من خلال أسطورة الإطار؛ فقد كان تجوالي كذلك بين الحضارات يخبرني بأن العلة النفسية قديمة قدم الحضارات القديمة! الله...حتى من ذلك الدواء صنعت ابتسامتي!

ماذا لو ذهبت للزاوية الأخرى؟ ماذا لو تخيلت حياتي دون أن أُصاب بهذا المرض؟ ستكون الحياة عادية...والتفاصيل مملة، سأكون نسخة مكررة لألف شخص آخر يسكنون مدينتي، ومليون في المملكة، مليار خارج المملكة..هذا المرض تجربة والتجربة رأس مال الحياة.

بالمناسبة... لست رأسماليًا لكني لا ألوم أهل هذا المنهج، في النهاية هم يريدون أن يشعروا بحياتهم حتى ولو كانوا يفعلونها بالطريقة الخطأ!

لا يهم، لكن التجربة مهمة، لا بد من هم يشغلك وعدو يحاربك ومشكلة تؤرقك... وكلما كانت الكارثة أصعب؛ كلما كانت الحياة أجمل، لا تبالوا كثيراً... قد يكون هذا الحديث ضربًا من الجنون، بالمناسبة الجنون والحب سيان؛ فكلاهما يرمي العقل خلفه...ويمضي قدما!

إن لم تصدقوني، اسألوا أنفسكم: هل توجد الحرية في غير الجنون والحب؟ هذان الشقيان وحدهما من يعرفان ماذا تعني كلمة حرية! هذان الشقيان اللذان يبدآن من نقطة خسارة كل شيء: الصفر! ثم يصنعان رقما صحيحا للحياة، هل ستصدقون مدعي الحرية الذين يحصرونها في تصرفات معينة ليخدعوا بها أنفسهم؟! هم فقط قابعون في تلك الدائرة المزخرفة بالكذب، يعطون أجسادهم أو عقولهم الفرصة للتمرد، وينسون أن أرواحهم هي هي، ويسمونها حرية! لطالما كنت أشمت بهم، فالإنسان كيان لا يتجزأ...إما أن يملك كيانه كله، أو يفقده كله!

الكتابة هي الماضي، الماضي الذي يرى مستقبلنا بوضوح دون أن نمل وقتنا الحاضر، الكتابة هي الجنة، الجنة التي تملؤنا بالرضا، ونحن ما نزال نرتكب المعاصي، ونعيش الإنسانية بكل عيوبها؛ ولهذا أكتب الآن ما أكتب، كتبت ما حدث بدقة وصدق، كتبت لي، وللناس، ولأحفادي.

كتبت لأصنع كتابًا..لأخلق منه صديقًا، وهل هناك أجمل من كتاب صديق؟ أن يكون صديقك الكتاب؛ فهذا ليس بالشيء الكثير، لكنه يعني أن لا تخسر أبدا...ولو شيئاً قليلا!

إنه القوة في الدقائق الأخيرة..الدقائق التي لا تستطيع النفس البشرية الوقوف أمامها، إنه النصر..أن تنتصر بمواطن ضعفك! الشفاء، أن يختفي الألم، وأنت تشعر بالسعادة حينما يتلاشى أمامك، من أراد أن ينتصر دوما؛ فعليه أن يقرأ دائماً، أنا لا أخشى إلا أولئك الذين يقرؤون... فهم وحدهم من لن تستطيع هزيمتهم!

الكتابة هي الكلام الذي تفشل الحياة في أن تعطينا الفرصة لقوله وأنا متطرف في غيها كثيراً، فإن لم تكتب بطيش وتقرأ بصوت هادئ... فما الفائدة من حياتك؟

سأكون سعيداً؛ لأني فهمت أن السعادة الحقيقية تكمن في التغيير، إنها تكبر وتكثر كلما تغير عقلك أكثر، وأنا غيرني المرض! ولذا أنا سعيد، كانت تجربتي ناجحة جدا، وكل ما أفعله الآن أني أجلس في انتظار أن يصلني هذا العالم اللاهث..أن أربت على كتفه إذا وقف ليستريح!

سأربت على كتفه في صلاتي، وأدعو له أن يتقبل ضحاياه بعضهم البعض، وكلنا ضحايا! أن نتكلم عن ظلامنا، وآلامنا وأحلامنا...عن الأشياء التي لم نخبر بعضنا بها يومًا!

اقرؤوا... افرحوا بالكتب التي ضمها الغبار، شموا في ورقها رائحة أصحابها، وجربوا المتعة في استعارة عقول غيركم! القراءة فعل غياب عن العالم، مع أمل كبير بالعودة إليه، كما يعود المهاجرين لأوطانهم... دائما يعودون بخير!

أنا لا أقول لكم احفروا عقولكم وضعوا فيها البذور..لا، أنا أقول لكم: احرثوا عقولكم واقلبوا تربتها، اضمنوا لكل حبة رمل منها حصة كافية من الضوء، حينها سنكون بخير...وارفين.

كانت فكرة التأقلم صعبة، وفكرة التقبل مستحيلة..وهل أملك أن أتقبل ما فعلت؟ أن أخرج للشارع كسكير أسرف في الشرب..الرائحة النتنه ما تزال عالقة في أنفي، الدهشة عالقة في عيني، لكن...هل يليق بي أن أستسلم؟! أتخفى خلف الأسوار هربا من نفسي؟ لا، هذا موت على قيد الحياة! ها أنا أعود لقاعات الدراسة، مليئًا بالاعترافات، خاليًا تماما من الخوف! عانيت كثيرا من صعوبة الاختلاط مع الآخرين..فوجوههم تصبح شاحبة إذا نظرَت نحوي، ونظراتهم أيضا ثاقبة حين يتعلق الأمر بي! ووجهي ذابل من تصرفاتهم، لكن لن أرضى بالاستسلام، للضحايا الذين لم يعلموا بعد كم هم مساكين! في الواقع، أجد في نفسي شيئًا من الشفقة نحوهم، لأني أعرف جيداً أنهم لو تعرضوا لبعض ما مررت به.. انتهوا ببساطة!

كنت أخفي علتي عن الناس، عن من يعرفون، بل عن الأشياء التي لا يهمها أن تعرف! وعن أكثر شخص يهمه أمري/ عني أنا! أتظاهر أني بخير، وأنا بخير.

لو لم أكن بخير؛ لما كنت الآن كما ترى، أتحدث عن آلامي مبتسماً! أعترف أني كنت ألبس كلمة بخير في نوبات الاكتئاب السليطة، أو ربما الهوس الخفيف كمشلح عريس! أو كنظارات تدعي أنها لا ترى ما أصابني...لكني الآن بخير، وأتمنى أن تكون مفردة «بخير»: تحتفي بي!

من يعتدِ الهوس؛ يعتد القمار! لكنه لا يقامر في غرفة خلفية من حانة، بل يقامر على سطح يخت صغير هاجت به أمواج المحيط، بعثرته الأمطار، وأنهكته الرياح، وأصابه اضطراب البحر بالدوار، لكنك لا تبالي... تمسك بورق اللعب، وتفكر في الورقة القادمة فحسب! ربما يغضب المحيط لأنك لا تبالي به فيزداد هيجاناً واضطرابا، لكن لنعترف: لكل لعبة أصول..وهذه قواعد الهوس.

يمنحك الهوس فؤاداً صلباَ وعقلاً مشتعلاً، وعينًا لا تجيد النظر للخلف! وثنائي القطب هو أم الهوس التي أنجبت توأم الهوس والاكتئاب، وكان عليها أن تربي المتضادين بنفس الطريقة! لذلك ستجد الاثنين دائما متجهين للأمام..شجاعان، بأفئدة صلبة وعقول مشتعلة، وأعين لا تجيد النظر للخلف!

الحياة بحد ذاتها مهارة، ماذا لو فقدنا مهارة تسمى الحياة! ماذا لو كانت « لو» حقيقية؟ لا أدري؛ فعندما ينام الناس ليلا يبدأ ثنائي القطب بالانتقام مني..يحيط بي بطريقة لا يمكنني الصمود أمامها، ضياع! أذكر أني ضعت مرة على سريري وصارت الغرفة بلا جدران! رأيتها تسبح في مساحة هائلة من الهواء العاري..ذلك الخيال كان ممتعًا لدرجة بدت فيها ذرات الهواء والأدخنة من عوادم السيارات ذات لون جريءٍ يدعوك للرقص...ربما ليشجعني على عدم محاولة اكتساب مهارة الحياة مجددا!

كانت تجربة تسرب الحياة مني مرهقة! أحيانا يحصل معي العكس... كأن تولد بعد الموت.. أن تستنشق الأكسجين من جديد أمر يدعو للنشوة، لا أحب التذمر، لكن ما حدث لي يستحق أن يصل إليكم، إلى هنا وهنا وهناك..لم تكن بي شياطين، ولم يتلبسني ماردٌ كما زعموا! كل ما في الأمر أن الحياة توقفت عندي، والمرء الذي يشعر بتوقف الحياة يعلم تماما في قرار ذاته بأن عودة الحياة مجددا تعنى الولادة... أو ربما الغياب التام؛ لأن العودة تجعلنا نشعر بالأشياء كما نشعرها لأول وهلةٍ !كالأطفال.

أتينا للحياة لنغيب، لا لنبقى، الحياة فقط طريق للتجربة؛ لذلك كلنا نخاف حين تقترب تجاربنا من نهايتها..لأننا نعرف أننا على وشك الوصول، ولأننا نعلم أننا قصرنا وبالغنا في التقصير، لدرجة أننا نصل لوجهتنا تماما، ورؤوسنا تلتفت للخلف، يااااه، كم نحن مليؤون بمواطن

الضعف! وأول ضعفنا وأحقره...أن نحاول أن نبقى أقوياء مهما كلف الأمر!

إن أعظم ما علمتني التجربة أن أصنع معياراً أقيس به الوهم، وهذا المعيار علمني بعدما تشافيت أشياء أخرى مؤلمة...أولها أن الحياة المثالية الواقعية هي الأخرى مليئة بالأوهام التي لا يملك أحد الجرأة على الحديث عنها؛ لأنه سيبدو مريضا في نظر البقية، ولأني مريض...فأنا أنتقد حياتكم من خلال مرضي..وهذا لا يؤذيكم؛ لأنكم تعلمون سلفا أني مريض!

نعم، ساعدني معيار الوهم لأتخطى بعض العقبات في طريقي.. وما زلت أستجديه المعونة والمساعدة، إن الذين يدعون بأنهم لا يستخدمون أوهامهم في حقيقتهم هم صغار، لم يروا حقيقتهم بعد...لأن الوهم أول بوابات الحقيقة..والشك أول بواعث التفكير، علينا أن نشك في وجهاتنا ونتأكد منها بين فترة وأخرى، وإلا سنفعل كما البقية..نصل للنهاية ونحن ننظر للخلف؛ فالطرق الخاطئة تؤدي بنا حيث نريد، لكن من يضمن لنا أننا كنا نريد الوجهة السليمة؟

مرضي هو البايبولر...بالعربية: اضطراب ثنائي القطب، وأحمد الله دوما بأن شخصيتي لم تضطرب بعد! أنا ورغم كل شيء أشعر بالاتزان، وأرى الكثيرين ممن يدعون الاتزان في قمة اضطرابهم! دون أن ينتقدهم أحد، لكني أشعر، وربما كان شعوري خاطئا أنهم يعلمون ذلك في قرارة أنفسهم.

لا يمكن لي أن أنسى ما مر بي مع المعالجين الذين استنزفوا أسرتي ماديا ونفسيا، تأخر علاجي لثلاثة أشهر، عالمهم مريض وليس أنا! يؤمنون بالخزعبلات والأوهام حتى أن وصفات علاجهم كانت تصيبني بالمزيد من الهوس، صدقتهم في بداية أمري؛ فأصابني العجز، وأما الآن؛ فأنا أحمد الله كلما تذكرتهم..فأنا في النهاية أفضل من أولئك المساكين، وبكثير.

تعلمت من تلك التجربة بأن أحترم الأطباء النفسيين؛ لأنهم علموني بأن الخرافة..الجميع يقدسها! لكنها لا تؤمن بأحد، ولا يفترض بها ذلك؛ ببساطة لأنها خرافة، حتى ولو دار عليها وشيعها جمعٌ غفير، أشكرهم جميعا، وجميع من كان حولي في تلك الفترة بلا استثناء! حتى ذلك الذي كان ينظر لي وأنا في أكثر المواقف جنونا، ويشير إلى السماء باشمئزاز، ويداه على جبينه، مرددا: «اللهم لا تبلانا».

عليهم ألا يلوموني..من جرب الهوس فقط سيعلم تماما بأن أدنى كلمة ستكون محفزه وكأنها الزيت الذي يزيد النار اشتعالا، كل ما أرغب به في هوسي القادم بأن يشعلوا لي الشموع ويعطروا المكان بالروائح الجميلة، ويغلقوا علي الأبواب، فهذا أفضل بكثير من رجل يقول: اللهم لا تبتلينا في وجه المبتلى نفسه!

تعرف قيمة الأشياء عندما تفقدها، إلا العقل! تعرف قيمته في الهوس..في اللحظة التي يستطيع أن يتجانس مع كل ما هو موجود، ويتفاعل معه بطريقة لا يحكمها لا عرف ولا قانون ولا مبدأ...ولن

أقول: عقل؛ لأن العقل بحر لا شاطئ له، ولا عمق ولانهاية...إذا لم يجد إطارا وهميا يرده؛ فإنه يصبح أشبه بالعدم، أقول كلمة العدم؛ لأنها الشيء الوحيد الذي لا حدود له!

علينا أن نسقط لهاوية أكبر، نحو نقطة شديدة البعد في الأسفل! من هناك...سوف نرى السماء بشكل واضح، أظن تلك الشهور التي قضيتها في عزلة تامة عن الواقع كانت النقطة الأبعد على الإطلاق!

للحرمان صوت مميز، يملأ السماء في الظهيرة؛ ليستفزك، ليستدرجك، لتجري خلفه دون شعور، في الحقيقة هذا ما فعلته دون أن أشعر! دفعتني تلك الأشياء التي أردت أن أتداركها للغياب، أو ربما هي الأخطاء التي أردت تصحيحها..لا أدري! وجدت نفسي وأنا ألهث خلفها، حاولت أن أجد مبررًا لما أقوم به في نوبات الهوس، إلا أنني عجزت كليا عن التحكم في ذاتي أو السيطرة عليها.

يكذب من يقول بأنه يعرف نفسه تمام المعرفة؛ فهناك شيء ما من أرواحنا شفاف لا يمكن لنا أن نراه! هو في علم الغيب يعلمه الله وحده، الصوفيون يعدون الجنون تمام الجمال! تصبح الأشياء معه جميلة لا يمكن وصفها..الأشياء التي كنت أسمعها أو أراها أو حتى أشمها يستحيل وصفها...حتى ولو استعنت بالكثير من القواميس والفنون، ولا عجب! كانت مجموعة من المشاعر والصور الخالصة والنقية من الشوائب.

من الطبيعي أن يخاف البشر من الكوارث التي يستشعرونها أو هم في غفلة عنها، ولكن المصيبة تكمن عندما يخاف الإنسان من نفسه! كنت أخافني، كنت أهلع مني، من ظلالي، مما سأفعله..الخوف الذي يأتي صباحاً لا يشبه خوف الليل؛ ففي الصباح تكسوه الدهشة والغرابة، وفي الليل يملؤه الفراغ..ووحدتك!

الهوس...الجنون...الاكتئاب، هي أشياء خرجت عن سيطرة الطبيب، وحلت في عقلي!

الكتابة هي العقار السري الذي أدمنه، لم يدلني عليها الطبيب، يبدو أنه نسي أن يرشدني إليها، أخبرني الورق أنني إن لم أكتب سأجن! لا بأس...حتى الجنون له جنون آخر يخصه، كتبتني تلك الأيام، وأكتب الآن من أجل التجارب المحفزة على التعايش مع المرض، خاصة وأن الكثير هنا لا يتقبل المرض أو لا يعترف به من الأساس!

يشعر المريض بالمسؤولية تجاه بؤس هذا العالم، ربما يخنقه الضمير؛ لأنه لم يفعل بعدُ ما يريد أن يفعله، كان قراري أن أعيش الحياة صعباً، لكنه أصبح سهلا عندما لاحظت بأن علتي من الممكن أن يصاب بها أي أحد، يكذبون كثيرا عندما يقولون بأن المرض نادر، أكاد أقسم بأني أعرف الآلاف ممن هم مصابون بمرضي! أنا رجل مكتئب لا يستطيع أن يفكر بإيجابية يوما؛ لأن السلبية تدفعني للأمام ولإنجاز المهام...يقتلني الخوف من اللا فعل أكثر من الفعل!

أريد أن أخبر أولئك الذين احترفوا لعبة الاختباء أني اخترت الهرب؛ فصوت الشارع من نافذتي، والقلم على الورقة يدعوني للحياة كما تدعوا الطيور صغارها للانطلاق، أنا أرفض هذا الألم، لكن علي أن أقبله، على الأقل لأتمكن من العيش بسلام.

عدت للجامعة، كما صنعت جدولاً صارمًا للعشوائية التي اعتدتها واعتادتني! التدوين كذلك علمني أن لا أخاف من لحظاتي تلك التي أكون فيها مع المرض...وعلى أن أكتشف إيجابيتي مهما كلفني الأمر! ساعدتني علوم الفلسفة والأدب في تخطي الكثير من الصعاب، أن تجد القيمة في المنفلوطي أو الحياة في جبران أو القيم في الطنطاوي أمر يدعو للقيام بأمور جليلة وفق طريقتهم الجميلة.

إن الكتب تنقل الإنسان من مكانه لمكانه نفسه، لكن لمستوى أعلى، بصورة مرتبة يحدث فيها التخاطر بصورة تليق بأعمالنا على الأرض، كما أني بدأت أواجه الحياة والآخرين..فلقد عدت إلى كل ما كنت أمارس في القدم.

كان نشاطي في كل الحياة خجولاً بعض الشيء، إلا أنه يدعوني للفخر!

أنا فخور بذاتي لأني أحد الذين صمدوا أمام ثنائي القطب، من يصمد؛ يجني..إلا أن الصمود لا يأتي بسهولة كما نتوهم أو نظن..

كان يحتاج إلى الكثير من الفعل،، والخشوع والعمل الساكن!

والقرارات المصيرية تحكم عليك بأن تكون في الشارع، لا كسكير، إنما كرجل محترم تليق به الحياة.

نفس الشارع الذي مشيته دائما..أمشيه، ارتبطت به بعلاقة حب حيث إنه يعرفني أكثر ممن هم حولي!

يأتيني الحنين كثيرا إليه أكثر من أي شيء آخر، لا أخشى أن أتكلم بما مررت به؛ لأني أعلم تماما بأن المحيط لا يقرأ بشكل جيد، وإن قُرِئَ سيمارس الصمت ليس إلا!

وهناك الكثير من الأعمال تدفعني للحياة غير الكتابة، وهي أن لا يمر أطفالي بما مررت به؛ لأن ثنائي القطب وراثي أكثر مما يفعل غيره!

ستمتد الشجرة وسيرتبط اسمي بالجمال... والظلال!

من جرب اللا معنى في الحياة وحده من يعلم متعة صناعته من جديد في الاكتئاب..عندما يسود الظلام وتأتي معه تلك الأفكار الوضيعة،والتي يكون جلها أن نفقد ذواتنا في الحياة! تساءل الطبيب صادقا بأني إن عزمت على الانتحار! لا أتذكر... لكني متأكد بأني كنت صادقا معه؛ فأنا لم أعتد الكذب في عقلي..فكيف وقد غاب؟!

علينا أن نناضل

أن نخترق الظلام وأن نحارب

تلك المجموعة من السوداوية، تُنفَى

تُنفَى!

عليها أن تُنفى؛ لأنها تحرق معظمنا.

من يبالي غير الأطباء!

لا أحد سوى نحن الضحايا، نتبعثر.

كما لو كنتَ مهزوما...وفي اللحظة التي تريد فيها أن تعلن استسلامك؛ تنتصر...ثنائي القطب جميل؛ فالوهم يصبح كالحقيقة، حتى أن تنوع الأمزجة يجعل من الحياة شكلاً بلوريًا يُفهِمك إياها أكثر من غيرك، والاكتئاب السليط الذي يخفي تفاصيله حتى على الربيب.. ذلك الطبيب الأسمر الأنيق ما عاد يرشدني.

ليس عليك أن تقرأ قصيدة الغراب الآن حتى تفهم حجم الاكتئاب أو العجوز والبحر، كنت أتوهم بأني أستطيع الكتابة عن الاكتئاب.. تخيلت أني في زجاجة لمشروب غازي..فتحة الهواء صغيرة جدا!

لا يصل إلى الصدر الهواء النقي بشكل جيد..حتى أنها تتدحرج على آخر الطريق، تصدر صوتًا بين حين وحين، حتى النسمة العابرة على فوهتها تبدو كفوهة بركان سيندلع بعد قليل! لا شيء..فالعالم الداخلي مصاب بالخواء حيال ما يمر به، كنفس اللحظة تماما؛ فالهواء مصدر طنين، كل ما في الاكتئاب أننا نبحث عن من يساعدنا دون أن يوبخ، وأن يصنع لنا جسرًا من الأمل دون أن يعري رغباتنا المدفونة..تلك الموجات المتجانسة بين النور والظلام!

والعتمة يمكن فهمها بشكل أفضل إن جلسنا نلعب كالأطفال بالرمال أو ممتلكاتنا الشخصية: المحفظة، المفاتيح، علبة المقص..كل ما تملك يدعو لأن تفتش عن سره، تأتيك رغبة بالفضول: لِمَ غادر الجمال هذا العالم! والممارسات العنيفة داخل النص وخارجه تبدو لك وكأنها سلوانٌ حرمت منه حتى تلك المضاربات التي تحدث في الأوساط القريبة..التي تبدو لك لا قيمة لها، إن فقدان المعنى يعطينا بعض الاستقلال في الحياة، ذلك الذي يجعلنا نصنع عوالم خاصة بنا، موازية، منفردة تماما بنا، والنمل في بيوته وعوالمه يبدو لك ملفتًا، تتمنى لو أنك نملة تمارس السير دون أدنى قيد ولا رادع!

الكتب، الكتب..الكتب هي الطريقة التي تجعل من الحياة والمعاناة أمرًا يمكن احتماله! إن تلك الجمادات لو يعلم الناس ما بها من حماية لعقولنا وذواتنا الهشة؛ لسبقونا إليها دون أدنى تراجع! الكتاب والقراءة

تجعل من ذلك الذئب قابلاً للترويض ولكن بصورة واحدة، ألا وهي الامتنان للحظة الرهينة في مخيلتنا!

في الحقيقة لم يكن قرار التعايش سهلا بالنسبة لي؛ فقد كنت أرفض معظم ما يمر بي، فبعد التجربة المريرة مع الهوس ومع المعالجين الشعبيين، وتجربة الخروج إلى الشارع دون وعي مني..كانت تجعلني فاقدًا للثقة تماما؛ لأن تلك المرحلة تجعلني في كل مكان أحضر إليه.. أتساءل: هل هم جربوا ذات يوم الجنون، أم أنهم يعرفون ضعفي ونقاط هشاشتي؟ وهل أخبرتهم الشوارعُ بما حدث هناك عندما كنت عليها أهذي.. كقطة ضلت طريقها، ولقد مللت من التخفي كفأر من ما يسكنني، وأن أمارس حياتي دون أن تكون هناك رغبة حقيقية فيما أفعل. .نابعة من الذات.

كان قراري بأن أتحمل مسؤولية نفسي، وما يسكن داخلها من شهوات مكبوتة في الحياة، خاصة بأن الضعف كان يظهر علي في بعض الأوقات؛ مما يتيح لبعض المتنمرين انتهاز الفرصة والتدخل في شؤوني، كان الرفض وليدًا من الأعماق، يفضح كل المواطن التي تخاذلت فيها مع الأنا، ومما يعرف عن الثنائي بأن المصاب فيه يفقد الثقة تماما؛ فقد صنعت الكثير من المهارات والاستراتيجيات الخاصة بي لاكتسابها من جديد.

كالكلام أمام الجمادات، تلك التي تفهم البشر دون أن تلعنهم بلوعة كشف الأوراق بعد مدة! كنت كذلك أهرب من نفسي ولا أقوى على مواجهة أحد، بل حتى الأشخاص حولي كنت أخافهم ولأني ببساطة

أمر بمزاجين غريبين..لا يمكن للبشر أن تفهمهم إلا المصابين، وفجأة بلا أدنى مقدمات..بدأت أبحث عن ما أفقد، ولقد كان ما أفقد كثيرا لدرجة لا تحصى! وعلى غير عادتي لم أمزق تلك الأوراق؛ لأنها تكشف ما بي من سوء، حاولت أن أكسب الشجاعة؛ فقد أرهقني إخفاء المرض والهروب من الحياة، وجل ما فيها يناديا.

إن أول ما دونت في استقراري الدائم هو أن أبحث عن الثقة..فبدأت أعمل إنجازات بسيطة تربي في نفسي الكثير..كإنهاء بعض الموسوعات؛ فلكل إنسان عمله البسيط الذي يساعده على تخطي الصعاب، كنت أردد لنفسي: لا تستخف بتلك الأعمال البسيطة مهما كانت درجتها؛ لأن المعنى المكتسب منها عميق.

كنت أفقد الهدوء الداخلي؛ ففكرت في الطريقة المثلى كي أحصل عليه، كان علي قبلها أن أراهن على معتقداتي وآرائي فإما أكسبها للأبد أو أخسرها للأبد؛ لأن ما ضرنا في الحياة غير تلك المعتقدات المهلهلة التي لم تستند على إيمان عميق بالإنسان!

صحيح أني في أول يوم لي في الجامعة بعد عودتي..هربت لأني كنت خائفًا مما حولي، لكن تلك الخطوة كانت بمثابة الانطلاقة الجديدة بالرغم من انعزالي عن الآخرين، إلا أنني أشعر بهم.

أن تتجرد من جهلك ليس بالسهل؛ فقد كلفني التخلي عن جهلي والاعتراف به الكثير..فقد خسرت جل عاداتي القديمة!

نكذب عندما نقول بأن الثقة تعود إلينا كما نفقدها بسهولة؛ فالفقد أسرع بكثير، أما أن نمتلك؛ فلا يمكن أن يحدث ذلك إلا بعد أن نمر بالعديد من التجارب، كل محاولاتي في كسب الثقة بدأت تعطي نتيجة جيدة؛ لأني فقط قررت أن أمتلكها، إن ذلك القرار كان يجعلني أكتسب المزيد منها دون أن أشعر، مشكلة الثقة أنها مغرية؛ فنتوهم أننا نستطيع أن نكتسبها بمزيد من الادعاء؛ لأن الوهم يلتبس حولها...أعطني قليلاً من الثقة، وأنا أجزم بأني أستطيع أن أغير هذا العالم البشع.

الهدوء والثقة يرتبطان ببعضهما؛ لأن الثقة هي نتيجة حتمية للهدوء.

كان علي من أجل أن أحصل على الثقة، أن لا أعنف نفسي مهما ارتكبت من الأخطاء، وأن أجد مبررًا مهما كلف الأمر، لأن الإنسان في حقيقته كائن يصنع المبررات دوما في أي زاوية تكمن، إن مشكلتي الوحيدة في الحياة هي الثقة..لو أني أملكها فعلا؛ لصنعت الكثير من الأشياء التي أخجل من فعلها والسبب فقدانها، قادني التأمل إلى القليل من الثقة، لكنه كان يدفعني للمزيد من العمل...تعلمت في حياتي بأني إذا أردت أن أحصل على الثقة، علي أن أطور مهاراتي، حتى وإن كان الفقد يجعلني لا أنميها بشكل جيد.

نحن لا نطلب المستحيل، فقط نطلب أن نُحتَرم كبشر، وأن لدينا رغبات ومبررات مثل باقي البشر، كانت مطالبي بسيطة في الحياة، ومخاوفي عميقة بالرغم من تفاهتها؛ فمثلا كنت أخاف من الطوابق العالية..فكنت لا أذهب لأي مبنى يتجاوز الدور الثاني؛ لأني كنت متأكدًا بأن هناك من سيقذفني منها! حتى النوافذ بالرغم من تطفلي عليها، إلا أنني ما زلت أتوهم بأن هناك من يراقبني من خلالها! وخلفي حيث أمكث..يجلس شخص يتعقب وحدتي فيها.

تلك التجارب المعقدة غير المفهومة بالنسبة لي لم يكن من السهل علي التخلص منها، حتى إن طعم الدموع والوداع الأول يجبرك على شيء واحد من الصمود، ألا وهو أن طعم التخاذل لا يمكننا أن نتحمله، مهما كان! وإن تخاذلي كان من قِبل ذاتي عندما قذفتها في الهاوية، حتى العقل يعجز عن التعبير عن مفاهيم الحياة.

علمتني تجربتي في الحقيقة شيئًا واحدًا لا يمكنني أن أنكره، ألا وهو التصنع؛ فلو لم أتصنع لاكتسبت الحياة من جديد؛ لأن الحياة ذاتها جل ما فيها يصنع: الإنسان، الشخصية، الأقنعة، الوجوه، والأرض، وما عداها من أشياء يمكننا أن نصنعه متى ما أردنا، في بدايتي مع المرض كنت أخاف أن أنظر في وجوه الآخرين، وما زلت لا أُقوى على ذلك، لكنني أخفف وطأة ذلك الشيء بأنهم مثلنا! يمكننا أن نخيفهم كما يخيفونا، لكن علينا أن لا نرد الخوف بالمثل حتى لا تفقد الأمور زمامها، الجنون هو

كل الأدوار في المسرحية والاكتئاب رجل جبان، لا يأتي بمفرده، والهوس ذئب ينهش الجسد..يندفع من الأعماق؛ ليكسر كل القيود.

خلال تلك السنتين كنت أكتب في الصحف المحلية بعض المقالات، وبعض المدونات، كانت التجربة توحي بالاستمرار، وبالرغم من أن التجربة ناجحة، إلا أنني توهمتها فشلت! كانت تلك التجربة تعطيني قسطًا مرضيًا من العطاء، وبالرغم من سوء ما كنت أكتب..غير أنها كانت بريدًا جيدًا، ما زلت أردد: مارس هوايتك؛ فهي الحل الأمثل في الأزمة.

المزاج عندما يصبح كالريح يضرب بك في جميع الاتجاهات..لا يمكنك الدفاع عن ذاتك إلا أن تتهيأ لولادة تلك الأعمال المجنونة التي ترافقنا عندما نكون في الغياب..يتلبسها الإبداع فيراها البعض بأننا فعلا خارجين عن نطاق الحياة، حتى وإن كانت بسيطة للغاية.

علمني الثنائي اكتشاف الأشياء على حقيقتها، ولكن تلك الاكتشافات تأتي بالصدمة، مثل الصراخ تماما، والبكاء كذلك صعقني عندما علمت بأنه الزجاج الذي يخدش الجسد، وجعٌ يسكن جسدي، يلتف حول قدمي، يعرقل خطواتي..كانت تلك التحدي الأكبر/ أن تتحمل مسؤولية نفسك، وأن تتناول العلاج دون أن يعاتبك البعض على ما تفعل!

الكلمات كانت دموعي الحقيقية، والتي يمكنها أن تصنع مني شيئًا، يذكر أو أجد فيها نفسي ومبررًا خالصا بالمعنى، إن الكلمات التي قرأتها في الكتب كانت بمثابة ضماد لجروح عقلي، تلك الكلمات التي أصارع فيها كانت تلتفني..وتصنع لي طوق نجاة..يحملني على التماسك! والحروف التي نسجتها وكتبت؛ كانت هي الترياق الأبدي الذي انتشلني من حالة الضعف، وبعد غيابي عن الحياة لمدة طويلة، أتيت متأخرًا لألحق الركب.

لم أتخلص من الخوف بسهولة، في الحقيقة كل النصائح التي استمعت إليها حياله لم تكن جيدة؛ لأنها كانت تنسى بأن الثنائي يفهم الحياة بصورتين مختلفتين! إنه مرض جميل، يحكم عليك أن تتعلم فن الهدوء حتى تستطيع أن تضبط ما يمر بك، وأن ترى الوقائع على حقيقتها، تكون في تلك متعة خلاقة، بل إنه مرض جميل لحد كبير، ولا يمكنني أن أنكر ذلك؛ فلقد تعلمت في الكثير من الأشياء عني! لولاه لما استطعت أن أصل إلى هذا الحوار الغريب مع الذات،

إنه مرض جميل، جميل، جميل..ولا يمكنني أن أدعي غير ذلك؛ لأنه من خلاله تعرفت على منافذ أخرى للحياة، وطرق جديدة بالرغم من ذلك الألم الذي لا يمكنني تحمله، والحرمان ولذة الفقد! يمكن التعويض عنها بممارسة نوع رخيص من النصوص.

في المرض كلنا فقراء، إلا في الثنائي! فإننا ندعي بأننا أصحاب أموال..وفي إحدى المرات دخلت المكتبة واشتريت مجموعة كبيرة من

الكتب حتى أصبح شكلي غريبا بين المارة، وعندما عدت إلى المنزل حتى لا ينكشف أمري..أدخلتهم كما يدخل البعض الممنوعات! تلك التجربة لم تكن الأولى؛ فقد كنت أبتاع الأشياء التافهة، وأنفق أموالي في سرعة عالية، بالرغم من كونها بسيطة إلا أنني لم أستطع السيطرة على المال! هنا المال هو السعادة، وأصدقائي يتمنون السعادة، وأنا أتعوذ بالله منها.. خشيت أن أغيب!

كان من أهم قراراتي في التعايش، أن لا أخشى السعادة مهما كلفني الأمر..حتى وإن غبت في نوبة هوس لا يدعو ذلك للخوف والقلق، أما بخصوص الأرق والأعراض الجانبية للأدوية؛ فلم أبالِ بها قط! لأن الجسد لا بد أن يتهلهل، والنوم..لا بد أن نموت، حتى الموت بدا صديقًا!

كما زادت جرعات علاجي لحجم متهور..أشكر الطبيب الذي جازف بعقلي ليصل به إلى الأمان! تلك المرحلة التي لم أتخيلني ذات يوم سأصل إليها! سافرت، العلاج يكمن في الداخل..الإنسان هو من يحدد مصيره في الحياة، وكانت النهاية صعبة..حيث إنني لم أستطع أن أتخلص من تلك الألقاب التي لحقت بي بسهولة، حيث فكرت في الأمر مليا، ثم بدأت في التفاهم بأن البشر يطلقون الألقاب على الآخرين، ابتداء من ذاتهم، أي ما ينعكس في نفوسهم تجاه ذواتهم؛ فيرونه في المحيط! بمعنى لست أنا من يُطلق عليه تلك الألقاب، أو يستحقها إنها جديرة بالشخص المتفوه بها.

أن ترى وتسمع شيئًا غير موجود فعليًّا أمر صعب للغاية..كلفني ذلك الكثير من الإثباتات والبراهين لكي أكتشف فعليا بأن تلك مجموعة أوهام لا أصل لها! حتى أنهم عندما ينادونني من بعيد..تعلمت ألا ألتفت حولي إلا عندما تكون هناك إشارات حقيقية تثبت ذلك كبعض الألقاب، البشر ينعتون بعضهم لكي لا يتقدمون على بعضهم، أما أنا؛ فقد كنت أعرف تلك المعادلة..أن تُنعت أهون بكثير من أن تلتفت لتجد السراب! سراب الصوت، وخيال الريح يعصف بما تمر به؛ فتسقط.

أنا لا أطلب الشفقة من أحد..كل ما أطلبه هو أن نعيش بسلام مثل الآخرين، كما أشكر الكثير من الكتب التي تعلمت منها أني فعلا بشر.. يمكنني أن أعيش الحياة مثلهم، أنا كذلك لا أملك حيال ما مررت به سوى أن أنقل صورة مبسطة عنه لكي لا يتمادى الظلام، إنها بقعة بسيطة من الضوء كفيلة بأن تبني طريقة وتحدد مسارَ مجتمع.

أنا كطفل للتو يتعلم الحرف، إن جل سعادتي تصبو لتلك الحروف التي أرددها كنغم..الحروف هي الأداة التي تصنع المرء، وبها يستطيع أن يصنع أهم ما يمر به، حتى أنه يستطيع أن يصنع عقله! ولقد كانت الكلمات التي تزخ في عتمة عقلي نورًا يحميني من الضوضاء الداخلية!

الصراخ لا يمكنه أن يخفف ما نشعر به في أعماقنا، لكنه قد يكون هو الدليل على أن كل الأشياء التي حولنا خذلتنا؛ فلم نجد شيئًا يسعف ما نمر به، سوى الصوت، وكلما وضعت رأسي على وسادتي؛ تذكرت

تلك المرة التي كان من يحيط بي يردد الشهادة؛ ظنًّا منه أن الموت قد أتى، يحكم على ذلك بأن أتصالح مع الغياب، الوحدة، العزلة، الألم، المرض، الوداع..جميعهم تعلمت منهم بأن الإنسان يفنى، ضعيف! وأن البقاء لله وحده.

إن الإنسان كائن هش مهما تظاهر بقوته، حتى إن صفقت به الريح.. من الممكن لها أن تُغيّبَه عنها لمدة طويلة، وتجعله طريح الأرض، عندما نقترب من الأرض نفهم أو ربما نسمع ذلك الصوت الدفين فينا، والذي لا يمكنه أن يعرقلنا.

الإنصاتُ للحياة صفة دفينة في الإنسان، من الممكن لها أن تصفِّي خياله، يسمونه التأمل، وغالبا ما يجبر عليه الإنسان إن لم يجد ما يعلمه أو ربما عندما يتعلم فوق طاقته، والتحاور مع ما أملك من أشياء وكتب، علمني ذلك الصوت كيف لي أن أسمعه دون ضوضاء أو صخب، بالرغم من أن داخلي مزدحم للغاية! ولا يمكنني في بعض الوقت التفريق بين ما أسمع أو أشعر! لكنني تعلمت أن أجد مبررًا لنفسي فيما يمر بي من داخلي، فتجربتي في الحياة غير عادية، وما إن يستشعر الفرد ذلك؛ فإنه يفهم الفكرة الجوهرية التي وُهبها من هذه الحياة ذاتها.

لا أستطيع أن أجزم ما هو سر تعايشي..إلا أنني شخص يقرأ دوما، ويكتب أكثر مما يقرأ، أي أنه وجد ذاته في ورقة متناثرة على رف ما، أحب الورق؛ لأنها الشيء الوحيد الذي يحتضن اضطرابي ويفهمه، وبالرغم من

العزلة القاسية التي أمر بها، إلا أنني كتبت على التاريخ أني قادم، وعلى أوراق المجد سجلت اسمي.

حتى الذعر الذي يتشكل لي من المستقبل لم أعد أخافه..كل القضية بأن الحياة إن لم نستمتع بما يتخللها من ألم؛ لا يمكننا أن نمضي، لأنها تمشي دون أن تنتظر، وفي الليل كان يؤنس وحدته بما تربى عليه عقله..حتى يتناثر على الوسادة دون أن يشعر.

الحياة قرار، وأنا قررت الحياة...الحياة تجربة كفيلة بأن تعاش كما هي، وهذا هو لب فكرتي، هل شعرت في الصفحات الأخيرة بتغير أسلوبي؟ ببعثرة كلماتي؟ أنا الآن أمر بنوبة أخرى! أكملت هذا الكتاب بصعوبة بالغة...وداعا.

مخرج

تلك التجربة التي نمر فيها مع الهوس والجنون، نستشعر أهمية ما تلقيناه في تلك اللحظة الفانية..تعطينا معنى لما مضى من حياتنا، أكتب هذه الأسطر وأنا إنسان يزعم أن علينا أن ننثر الأدب في كل مكان حتى تنتهي مشاكلنا في الحياة، ويدعي أن علينا أن نعلم ذواتنا هواية نصارع بها مرارة الحياة وصعابها! والصورة الهشة للإنسان يخفيها الطابع الأدبي ويذيبها وفق آليات خيالية كتلك التي تأتينا في المنام، علمتني تجربتي مع الهوس أن لا نرضى بالسكون، مهما تعددت صوره وأشكاله، فالنفس البشرية تمرض في الدقائق التي تعتاد عليها، مشكلة آلامنا أنها سخيفة، وأننا لا نعلم عن حجم سخفها إلا حين تمضي! كان أمامي خيارين في الحياة: إما أن أستسلم بأن أكون مرميًّا على سرير المصحات، أو أن أواجه الحياة..ولقد اخترت المواجهة.